كوكتيل 2000

ثقافة الغد .. لشباب اليوم

روايات مصرية للجيب

الجرثومة

وقصص أخرى

33

د. نبيل فاروق

Looloo
www.dvd4arab.com

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

- مع بدء العـــد التنـــازلى ، نحو القـــرن الحادى والعشرين ..
- مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب ..
- مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء ..
- مع كل هذا جاءت كوكتيـــل ٢٠٠٠ ، بمثابة باب إلى المعرفة ..
- إلى الحضـــارة ..
- إنها ثقافة الغد .. لشباب اليـوم

د. نبيل فاروق

أم علـى

(قصة قصيرة)

« الدكتور (محسن) عاد من مؤتمر (لندن) .. »

ألقت زميلتى (نهـا) العبـارة فى همس منفعل ، وهى تلهث فى شدة ، على نحو جعلنا جميعًا ننظر إليها فى دهشة ، قبـل أن أقول أنا ، فى حيرة مستنكرة :

ـ عاد إلى هنا ؟!

أومأت (نهـا) برأسها إيجابًا ، فى حماسة منفعلة ، وهى تقول :

ـ نعم .. من المطار إلى هنا مباشرة ؛ ليتابع حالاته التى كان يتابع علاجها قبل سفره .

ثم غمزت بعينها فى خبث ، قبل أن تستطرد :

ـ إنه غير متزوّج كما تعلمن .

وجدت نفسى أهتف فى حدة :

ـ ومن تفكّر فى الزواج من جلف مثله ؟

ضحكت زميلتنا (سلوى) وهى تقول :

ـ الواقع أنه وسيم جدًا يا (مروة) .

قلت فى حدة أكثر :

ـ حتى ولو كان أكثر رجال الأرض وسامة ! إنه مجرّد تمثال من الرخام ، بلا قلب أو مشاعر .

هزّت (نها) رأسها نفيًا ، وقالت :

ـ لست أظن هذا .. ربما كان صارمًا عنيدًا ، ولكن لو أنه بلا مشاعر كما تقولين يا (مروة) لما عاد من المطار إلى هنا مباشرة ، ليعود مرضاه .. شخص غيره كان سيعود إلى بيته ، وينعم بيوم كامل من النوم والراحة أوّلاً .

هتفت بعناد :

ـ ولو .

ضحكت (نها) و(سلوى) ، ولم تحاول إحداهما معارضتى ، لما تعلماته من صلابتى وعنادى ، منذ كنا زميلات فى مرحلة الحضانة ..

والواقع أن رأيى فى الدكتور (محسن) هذا لم يتغيّر أبدًا ، منذ بدأت العمل كطبيبة امتياز ، فى ذلك المستشفى العام ، إثر تخرجى مع زميلتى عمرى ، من كلية الطب ..

فمنذ أوّل يوم عرفته ، وهو شخص صارم ، عنيف ، لا يهتم فى الدنيا كلها سوى بمرضاه ، الذين يعاودهم ليلاً ونهارًا ، ويقضى ساعات طوالاً إلى جوارهم ، دون أن يسمح لطبيب امتياز واحد بالاقتراب منهم ، أو التدخّل فى علاجهم ..

العبارة الوحيدة ، التى يردّدها دومًا ، هى أن أطباء الامتياز مجرّد ظلال بيضاء غير نافعة ..

قول سخيف ، يشفّ عن غرور غبى ..

هذا ما أقوله عنه دومًا ..

أما الشىء الذى كنت أصرّ عليه باستمرار ، فهو أنه رجل

بلا قلب أو مشاعر ، وأن صرامته الدائمة ليست إلا محاولة سخيفة لإخفاء أمر ما ، يخجل أن يعرفه الآخرون عنه ..

بالتأكيد ..

ولقد عدت أخبر صديقتىَ برأيى هذا ، ونحن فى طريقنا إلى استقبال الطوارئ ، الذى سنقضى فيه نوبة الليل معًا ، كما اعتدنا طوال فترة الامتياز ..

وفى حجرة استقبال الطوارئ ، رحت أشرح لهما خطة وضعتها ، لإحراج الدكتور (محسن) ، وكسر غروره وتعاليه ، وإجباره على الاعتراف بوجودنا نحن أطباء وطبيبات الامتياز ، و ...

« هل تسمحن ؟! »

قاطعتنا تلك العبارة القصيرة ، التى نطقها رجل قصير القامة ، خشن الملامح ، فى لهجة خافتة مهذَّبة ، تتناقض بشدة ، مع بنيانه المتين ، ولحيته غير الحليقة ، فاعتدلنا فى آن واحد ، وسألته أنا :

ـ ماذا هناك ؟!

أشار بيده ، فى شىء من الارتباك ، وقال :

ـ والدتى مريضة .. معدتها تؤلمها منذ الغروب .. هل يمكنكن أن .. أعنى هل تسمحن بـ ...

قاطعته قبل أن يكمل ، وأنا أنهض من مقعدى ، واتجه إليه بحماسة :

ـ بالتأكيد .. أين هى ؟!

تبعتنى (نها) و(سلوى) كالمعتاد ، واتجه ثلاثتنا إلى حجرة الكشف ، ولم يكد بصرنا يقع على أمه ، التى تقف إلى جوار سرير الكشف الطبى صامتة ، تمسك معدتها فى ألم ، حتى هتفنا فى آن واحد :

ـ أم (على) ؟!

ارتبك الرجل بشدة ، فى حين امتقع وجه الخالة أم (على) العجوز ، وهى تحدِّق فى وجوه ثلاثتنا ، مغمغمة فى خجل وارتباك :

ـ كيف حالكن يا بنات .

عبارتها القديمة ، التى طالما سمعناها فى طفولتنا ، أثارت فى نفوسنا حنينًا شديدًا ، وأعادت إلى أذهاننا ذكريات أجمل أيام حياتنا ، عندما كنا صغيرات ، نسكن إلى جوار بعضنا ،

فى منطقة (المعادى) ، وكانت الخالة أم (على) قاسمًا مشتركًا فى حياتنا ، عندما كانت تحضر لأسرنا البيض الطازج ، والدجاج والبط وغيرها من الطيور ، وتؤدى للكل أية خدمات معقولة ، مقابل أجر بسيط ..

كانت دومًا باسمة الثغر ، حنونًا ، دافئة المشاعر ، ما إن نلمحها ، نحن وأطفال الحى كله ، حتى نهرع إليها بفرحة عارمة ، ونحن نهتف باسمها ، وكانت هى تستقبلنا دومًا بابتسامة كبيرة ، ودفء يكفى لإذابة ثلوج القطبين معًا ..

وكم أحببناها وتعلقنا بها فى طفولتنا ، وأصبحنا ننتظرها بكل اللهفة والحب ..

ثم اختفت أم (على) فجأة ..

دون مقدمات ، لم تعد أم (على) تأتى إلى حيّنا ، أو إلى أية أحياء أخرى .. ولقد انتظرناها طويلاً ، ثم لم نلبث أن بدأنا نبحث عنها ، ونسأل عن أحوالها ، فعلمنا من بعضهم أن ابنها (على) قد طلب منها أن تكفّ عن العمل ، وخرج هو ليعول أسرته كلها وأشقاءه الأصغر سنًا ..

وكم افتقدنا أم (على) فى شبابنا وصباتا ..

حتى رأيناها الآن ..

وبكل شوقنا ولهفتنا ، أقبلنا عليها نغمرها بحبنا وقبلاتنا ، فاحمر وجهها خجلاً ، وامتزج ألمها بتلك الابتسامة الحانية الدافئة ، التى افتقدناها طويلاً ..

وبكل حبنا ، رحنا نفحص أم (على) ، ونتعاون على إراحتها وتهدئتها ، وتخفيف آلامها ، وابنها يقف صامتًا ، يتطلّع إلينا فى تأثُّر واضح ..

ولكن أم (على) كانت تحتاج إلى ما هو أكثر من عقار لتخفيف الألم ..

وبكل الاهتمام ، قلت لها :

ـ خالتى أم (على) .. سنحتجزك هنا ليومين ، حتى نجرى لك كل الفحوص اللازمة .

ظهر على وجهها ذعر لم أفهمه ، فى حين اندفع ابنها يقول فى ارتباك :

ـ لا .. ليس هنا .

قالت (نها) فى دهشة :

ـ ولِمَ لا .. ما ستجده هنا لن تجده فى أى مستشفى آخر .. ثم إن الخالة أم (على) مثل والدتنا ، وسنوليها كل رعايتنا واهتمامنا ..

تبادلت أم (على) نظرة قلقة متوترة مع ابنها ، الذى أومأ برأسه ، وكأنما يعلن فى صمت فهمه لما تعنيه ، وتنحنح فى حرج ، قائلاً فى شىء من الحزم :

ـ ليس هنا .

خُيِّل إلىَّ أننى قد فهمت مغزى كل هذا ، فقلت فى حزم :

ـ لن يكلفكما هذا قرشًا واحدًا .

قال الرجل فى حرج :

ـ ليست مسألة نقود .

تابعت وكأننى لم أسمعه :

ـ سنتخذ كل الإجراءات اللازمة ، وسندخل الخالة أم (على) القسم المجانى ، و ...

قبل أن أتمّ عبارتى ، ارتفع صوت جهورى صارم ، يقول :

ـ هراء .

التفتنا جميعًا بحركة واحدة ، إلى مصدر الصوت ، ووقع بصرنا على الدكتور (محسن) ، الذى بدا عملاقًا قويًا صارمًا فى تلك اللحظة ، حتى إن (نها) و(سلوى) قد امتقعتا على نحو عجيب ، فى حين ارتبك الرجل القصير ، واحتقن وجه أم (على) المسكينة ، وتراجعت فى شىء من الذعر ، جعلنى أشفق عليها ، وأهم بالاعتراض على قوله فى عنف ، لولا أن فوجئت به يكمل ، فى حنان عجيب ، أدهش الكل بالتأكيد :

ـ هذه السيِّدة ستعالج فى جناح خاص ، وبالدرجة الممتازة أيضًا .

احتقن وجه أم (على) أكثر ، وارتبك ابنها بشدة ، ولكن الدكتور (محسن) اتجه نحوهما ، ثم أقدم على آخر شىء يمكننا تصوّره ..

لقد انحنى يلتقط يدها ، ثم يطبع عليها قبلة طويلة ، جعلت وجهها يتضرَّج كله بحمرة عجيبة ، قبل أن ينهض هو ، ثم يحيط جسدها الضئيل بذراعه القوية ، ويضمها إليه فى حنان جارف ، قبل أن يقول بصوت ، لم أسمع أكثر أو أشدّ منه حبًا وفخرًا واعتزازًا :

ـ إنها أمى .

اتسعت عيون ثلاثتنا فى ذهول ، ونحن نحدّق فيه ، فى حين دفنت أم (على) رأسها فى صدره ، وسالت دموعها على وجهها الطيب الحنون ، فضمّها إليه أكثر ، وربّت عليها بحنان أذهلنى ، وأطلق فى جسدى كله ارتجافة عجيبة ، شملته حتى النخاع ..

وبكل ذهولها ، هتفت (نها) :

ـ الخالة أم (على) هى أمك ؟!

اتسعت ابتسامته فى زهو وفخر ، وهو مازال يضمّ أمه إليه بكل حنان الدنيا ، ومدّ يده يربّت على كتف القصير ، وهو يجيب :

ـ لى كل الفخر .. أما هذا ، فهو (على) ، شقيقى الأكبر ، وأفضل أسطى ميكانيكى فى (المعادى) كلها .

ثم التفت إلى شقيقه ، وداعب لحيته نصف النابتة ، وهو يضيف بحب :

ـ كفاحه وتضحيته هما اللذان صنعا منى ما أنا عليه الآن .

قالها ، وطبع قبلة امتنان على جبين شقيقه (على) ، قبل أن يعتدل ، مستعيدًا كل صرامته المألوفة ، ومستطردًا :

ـ هيا .. لاتضيعن الوقت .. أريد أفضل جناح فى المستشفى كله .. على النيل مباشرة ، وعلى نفقتى الخاصة .. وليبدأ الاستعداد لعمل الفحوص فورًا .

وبكل حماس الدنيا ، هتفت :

ـ بالتأكيد .

لحظتها ، ألقيت كل خططى السابقة خلف ظهرى ..

ووضعت خطة جديدة ..

ولقد نجحت خطتى الجديدة نجاحًا باهرًا ، ولايمكنكم أن تتصوّروا مدى سعادتى وفخرى بنجاحها ، وأنا أسير الآن فى (المعادى) متأبّطة ذراع زوجى العظيم ، الدكتور (محسن) ، وفى يدى الأخرى ثمرة حبنا ..

(على) ..

حفيد أم (على) ..

* * *

الحاج (شيحه) (قصة قصيرة)

كلنا سمعنا الخبر ، وقرأناه فى كل الصحف ، فى ذلك الصباح ..

الدولة قرَّرت عدم السماح بأداء فريضة الحج ، لمن أدوها فى العام الماضى ، حتى تتاح الفرصة للآخرين ، ويخفّ الضغط فى موسم الحج ..

كلنا استقبلنا الأمر واستوعبناه ، وأدركنا حكمته ومغزاه ..

إلا الحاج (شيحه) ..

والحاج (شيحه) هذا واحد من أبناء حارتنا ، لا أحد يعرف وظيفته أو مهنته بالضبط ، ولكنه يؤكّد دومًا أنه يزاول الأعمال الحرة ، وإن لم يفصح قط عن طبيعة هذه الأعمال ، مما جعلنا نكتفى بحديث زوجته الحاجة (فتحية) ، عن عمله كسمسار مقاولات ، فى بعض الأحياء الراقية ..

ومنذ انتقال الحاج (شيحه) وزوجته للسكنى فى حارتنا ، اعتدنا أن نراهما يؤديان فريضة الحج سنويًا ، وإحاطة سفرهما وعودتهما بمظاهر احتفالية خاصة ، تروق كثيرًا لأهل الحارة ، وتثير فرحتهم .. وربما غيرتهم أيضًا ..

ومع عودتهما من الأراضى المقدسة ، اعتدنا أيضًا أن يسيل لعابنا ، وتسيل معه تساؤلاتنا ، عن نوعية الهدايا والهبات ، التى يوزعانها علينا جميعًا كل عام ، فبساط صلاة لهذا ، وجلباب لذاك ، وثوب مزركش لتلك .. وهكذا ..

وعندما أعلنت الدولة تقييدها لعدد مرات الحج السنوية ، امتقع وجه الحاج (شيحه) ، واحتقن ، واحمرّ واصفرّ ، ثم صاح بكل غضبه :

ـ كلاَّ .. هذا ظلم .. ظلم فادح ..

كنا نقدِّر جميعًا عشقه السنوى لأداء فريضة الحج ، وإصراره الدائم عليها ، لذا فقد رحنا نبذل جهدنا ، لتهدئة مشاعره ، وإقناعه بحكمة القرار ، ورحت أنا أقول له فى روية :

ـ فريضة الحج تكفيها مرة واحدة ياحاج (شيحه) ، وهى تسقط عن المسلم ، بعد هذه المرة .

لوَّح بذراعيه ، هاتفًا فى حدة :

ـ مستحيل ! لابد أن أذهب للحج .. لايمكننى أن أضيع غنيمة كبيرة كهذه .

ربَّتُّ على ظهره ، محاولاً تهدئته ، وأنا أقول :

ـ الحج ليس الوسيلة الوحيدة ليغنم المرء ثواب اللَّه (سبحانه وتعالى) .. يمكنك أن تتبرَّع بمبلغ أداء فريضة هذا العام إلى أحد مستشفيات الأورام ، أو أجهزة الغسيل الكلوى ، أو حتى لأحد الشبان الراغبين فى الزواج .. هذا حتمًا سيمنحك ثوابًا أكبر .

تطلَّع إلىَّ ، كما لو كنت مجنونًا ، ثم هزَّ رأسه فى قوة ، قائلاً :

ـ أنت لاتفهم شيئًا .. لاتفهم شيئًا ..

قالها ، ونهض فى حدة ، واندفع يغادرنا فى توتر بالغ ، وهو يلوِّح بذراعيه ، ويهمهم بكلام غير مفهوم ، فغمغم جارنا الأستاذ (فرحات) :

ـ لاحول ولاقوة إلا باللَّه .. الرجل عاجز عن استيعاب فكرة عدم السفر للحج هذا العام !

هززت رأسى ، قائلاً :

ـ لابد أن يعتاد هذا .

أومأ جارنا الآخر ، الأستاذ (ثروت) برأسه ، وقال فى هدوء :

ـ سيجد وسيلة .

قلت فى دهشة :

ـ أية وسيلة ؟! إنه قانون .

ابتسم فى رصانة وغموض ، قائلاً :

ـ الحاج (شيحه) سيجد وسيلة .

لم أفهم مَايعنيه ، ولاسر ثقته العجيبة بالحاج (شيحه) ،

حتى فوجئنا بالرجل يقبل علينا ، بعد أسبوع واحد ، وهو يلوِّح بجواز سفره فى بشر وحبور ، قائلاً :

ـ لقد فعلتها .

سألته فى حيرة :

ـ فعلت ماذا ؟!

جذب الحاج (شيحه) مقعدًا ، وجلس إلى جوارى ، قائلاً فى ظفر فرح :

ـ حصلت على التأشيرة ، وسأسافر لأداء فريضة الحج ، هذا العام أيضًا .

سألته بكل الدهشة :

ـ ولكن كيف ؟! والقانون ؟!

أشار الأستاذ (ثروت) بسبَّابته فى وقار ، قائلاً :

ـ المال يفتح كل الأبواب .

هتفت بدهشة مستنكرة :

ـ المال ؟!

ضحك الحاج (شيحه) ، وعاد يلوِّح بجواز سفره ، قائلاً :

ـ نعم يا رجل .. المال .. لقد ابتعت تأشيرة خاصة .

هتفت باستنكار أكثر :

ـ لأداء الحج ؟!

هزَّ رأسه نفيًا ، ومال نحوى ، قائلاً فى ظفر :

ـ بل للعمل فى أثناء فترة الحج .

سألته فى حيرة :

ـ ماذا تعنى ؟!

اعتدل ، مجيبًا فى حماسة :

ـ إنها التأشيرة التى تحصل عليها كل الفئات المعاونة ، فى فترة الحج .. مثل السائقين ، والحلاقين ، والعاملين فى المناسك والفنادق .

سألته فى دهشة منفعلة :

ـ وكيف أمكنك الحصول على تأشيرة كهذه ؟!

ضحك ، وهو يشير إلى الأستاذ (ثروت) ، قائلاً :

ـ بالمال يا رجل .. بالمال !

هتفت فى غضب مستنكر :

ـ من السفارة ؟!

هزَّ رأسه نفيًا ، وهو يقول :

ـ مستحيل ! السفارة لن تتجاوز القانون أبدًا ..

لقد حصلت عليها من إحدى الشركات ، التى تورِّد الفئات المعاونة ، فى موسم الحج .

ثم عاد يضحك فى ظفر ، ويلوِّح بجواز سفره ، هاتفًا :

ـ المهم أننى سأسافر مع الحاجة ، هذا العام أيضًا .

أدهشنى أسلوب الرشوة والتحايل ، لأداء فريضة مقدسة كهذه ، إلا أننى آثرت الصمت ، واكتفيت برفض القلب ، حتى سافر الحاج (شيحه) مع الحاجة (فتحية) كعادتهما ..

ومرَّت الأيام ، ونسيت الأمر برمته ، وانشغلت فى أيام العيد ، وما أعقبها من إعادة تنظيم وتدبير ، و ...

« هل سمعت أخبار الحاج (شيحه) وزوجته ؟! »

فاجأنى الأستاذ (فرحات) بالسؤال ، وهو يقبل علينا فى المقهى ، فقلت فى دهشة :

ـ عجبًا .. كيف نسيت أمره هكذا تمامًا ؟! صحيح .. ما أخبارهما ، ولماذا لم يعودا من الحج حتى الآن ؟!

مال الأستاذ (فرحات) نحوى ، قائلاً :

ـ لقد عادا ، ولكن ليس إلى الحارة .

سألته فى دهشة أكبر :

ـ إلى أين إذن ؟!

التقط نفسًا عميقًا ، قبل أن يجيب :

ـ إلى السجن .

مطَّ الأستاذ (ثروت) شفتيه ، دون أى تعليق ، وكأنما لم يدهشه هذا ، فى حين كدت أنا أقفز من مقعدى ، صارخًا :

ـ السجن ؟! لماذا ؟! هل حاولا تهريب بضائع من الجمارك ؟!

أجابنى فى سرعة :

ـ تهمتهما ليست التهريب .. إنها النشل .

اتسعت عيناى عن آخرهما ، وكاد قلبى يتوقَّف ، وأنا أهتف :

ـ النشل ؟! مستحيل !

مطَّ الأستاذ (ثروت) شفتيه مرة أخرى ، والأستاذ (فرحات) يقول فى حماسة عجيبة :

- إنها مهنتهما منذ زمن طويل .. النشل .. وإصرارهما على السفر للحج كل عام كان بسبب ما ينشلانه من الحجيج هناك .

ردَّدت فى ذهول :

- النشل .

غمغم الأستاذ (ثروت) فى ازدراء :

- كنت أعلم هذا منذ البداية .

ثم نهض ، وانصرف مع الأستاذ (فرحات) ، وهما يتحدثان عن الأمر ، وتركانى على المقهى وحدى ، ذاهلاً مذعورًا ، أراجع فى أعماقى التاريخ كله ..

تاريخ جارنا الحاج ..

(شيحه) .

* * *

مهمة رسمية

ملخص ما سبق نشره :

فى سابقة تعدّ الأولى من نوعها ، لجأ اللواء (حلمى) إلى (نديم فوزى) ، ليعاونه فى قضية غسيل أموال قذرة ، تورَّط فيها رجل الأعمال ، صاحب الاتصالات الضخمة ، والنفوذ القوى (رشاد السلباوى) ..

وكوسيلة لدراسة خصمه ، وردود أفعاله ، زار (نديم) (رشاد السلباوى) شخصيًا ، وواجهه مع محاميه الثعلب (إدوارد) ، ثم تركهما ليرسل (إدوارد) خلفه رجله الأوّل (جابر) ، ليراقبه ويرصد حركاته ؛ لأنه يعلم أن (نديم فوزى) هو فى الحقيقة (العقرب) ، مكافح الجريمة السرى الأوّل فى (مصر) ..

ولكن (العقرب) نجح فى الفرار من المراقبة ، وقرَّر أن يطرق الحديد وهو ساخن ، ويقوم بتفتيش مخازن (رشاد السلباوى) ، التى لم يعثر فيها سوى على شحنة من الموسوعات الفاخرة ..

ولكن فجأة ، وجد (نديم) نفسه محاطًا برجال (السلباوى) ، ومحاميه ، ورجال الشرطة ، وعلى رأسهم خصمه اللدود الدائم ..

(مجدى) ..

العقيد (مجدى) .

* * *

٤ـ الفـخ ..

كان من الواضح أن الموقف شديد التعقيد ، وفى غير صالح (العقـرب) ، على طول الخط ؛ فهو داخل مخزن يمتلكه (رشاد السلباوى) ، ويحيط بـه رجـال الشـرطة بمدافعهم الآلية ، ويواجه (إدوارد) ، المحامى الثعلب ، مـع العقيد (مجدى) ، رجل الشرطة ، الذى لا همَّ له فى الحيـاة سوى إثبات أن (نديم فوزى) ضابط الشرطة السـابق ، والمحامى الحالى ، هو نفسه (العقرب) ..

وفى موقف كهذا ، لم يعد الأمر عسيرًا على الإطلاق ..

يكفى أن يتقدَّم (مجدى) نحوه ، وينزع قناعه ، و ...

« أظنك قد وقعت أخيرًا ياسيِّد (نديم) .. »

نطقها (مجدى) فى ظفر شامت مبتهج ، وهو يتطلَّع إلى (العقرب) ، بقناعه الأسود ، الذى يخفى معظم ملامحه ، فى حين ارتسمت ابتسامة كبيرة على شفتى (إدوارد) ، وهو يلوِّح بيده ، قائلاً :

ـ أرأيت ؟! كل شىء قانونى مائة فى المائة .

ارتسمت ابتسامة ساخرة على شفتى (العقرب) ، وهو يلتقط الكتـاب ، ذا الغلاف الأحمر الفـاخر ، مـن طيـات ثيابـه ، ويرفعه إلى جوار وجهه ، قائلاً :

ـ حتى هذا ؟!

احتقن وجه (إدوارد) بشدة ، وانقلبت سحنته على نحو مدهش ، وهو يحدِّق فى الكتاب ، حتى إن حاجبى (مجدى) انعقدا فى توتر ، وهو يسأل فى عصبية :

ـ ما أهمية هذا الكتاب بالضبط ؟!

لم يبد حتى أن (إدوارد) قد سمعه ، وهو يهتف برجـال الأمن الأربعة ، الذين يحيطون به :

ـ استعيدوا هذا الكتاب منه .. بسرعة .

لم يكد هتافه يكتمل ، أو ربما قبل هذا بلحظة ، حتى اندفع رجال الأمن الأربعة نحو (العقرب) ، فى شراسة عنيفة ، وانتزع أحدهم مسدسه بحركة حـادة ، فصـرخ العقيد (مجدى) فى عصبية آمرة :

ـ لا تطلقوا النار .

اقترنت آخر حروف كلماته بفرقعة مكتومة ..

ثم انقطع التيار الكهربى دفعة واحدة ..

ومع المفاجأة ، دوى فى المكان صوت طلق نارى ، والتمع وهج رصاصة ، مقترنًا بصرخة (مجدى) ، وهو يكرِّر :

ـ قلت : لاتطلقوا النار .

ولكن صرخته ضاعت وسط هرج ومرج عجيبين ، سادا المكان ، وسط الظلام الدامس ، وبدا وكأن الجميع يتحركون على نحو عشوائى متخبِّط ، وظهر وهج رصاصة أخرى ، مقترنًا بدويها ، مع صرخة (مجدى) الغاضبة :

ـ أغلقوا كل المداخل .. إنكم تفسدون كل شىء .

لم يكد يتمّ عبارته ، حتى فوجئ بأصابع قوية تنغرس فى كتفه ، وسمع من يهمس فى أذنه ، بلهجة صارمة :

ـ لو أنى فى مكانك ، لما غادرت قبل أن أفحص هذه الكتب الأنيقة .

استدار بسرعة إلى مصدر الصوت ، صارخًا :

ـ إنه هنا .

ولكن أصابعه قبضت على الفراغ ، فى نفس اللحظة

التى انتزعت فيها تلك الأصابع القوية من كتفه ، وارتفعت فى الظلام ضحكة ساخرة مستفزة ..

ضحكة (العقرب) ..

وبكل غضبه وثورته ، صرخ (مجدى) :

ـ أغلقوا كل الأبواب .

وتبعه (إدوارد) ، صائحًا :

ـ لاتسمحوا لأحد بالخروج من هنا .. سيعمل مولِّد الطوارئ بعد دقيقة واحدة .

اندفع الرجال يتخبطون ويتصادمون ، وسط الظلام الدامس ، وارتفعت الصرخات الغاضبة من كل صوب ..

ثم بدأ المولِّد الاحتياطى عمله ، واشتعلت الأضواء كلها دفعة واحدة ، لتغمر المخزن كله .. وبحركة واحدة ، التفتت العيون كلها إلى حيث كان يقف (العقرب) ، ثم اندفعت تبحث فى كل صوب ..

ولكن ، باستثناء (إدوارد) ورجال الأمن الأربعة ، و(مجدى) ومن تبعه من رجال الشرطة ، لم يكن هناك أثر لمخلوق آخر .. أدنى أثر ..

★ ★ ★

« لم يكن أمامى سوى هذا .. »

غمغمت (غادة) بالعبارة ، وهى تنطلق بسيارة (نديم) ، مبتعدة عن منطقة مخازن (رشاد السلباوى) ، فانتزع (نديم) قناعه ، وألقاه داخل حقيبة صغيرة ، وهو يبتسم ، قائلاً :

ـ كان هذا أعظم رد فعل رأيته فى حياتى كلها .

هزَّت رأسها ، قائلة :

ـ لقد رأيتهم يدخلون المخزن ، وأدركت أنهم سيحاصرونك ، ولما لم أجد ما أفعله ، فقد اتجهت إلى كشك الكهرباء الرئيسى ، ونزعت المحولات الأساسية .

قال ، وهو يستبدل ثيابه فى سرعة :

ـ كانت مخاطرة كبيرة .

غمغمت :

ـ وماذا كان البديل ؟! أن أتخلَّى عنك !!

ابتسم ، وهو يتمتم :

ـ مستحيل !

تضرَّج وجهها بحمرة الخجل ، وهى تغمغم :

ـ لو تبدَّل الوضع ، كنت ستفعل المثل .. أليس كذلك ؟!

تطلَّع إليها لحظة ، قبل أن يجيب برصانته المعهودة :

ـ بالتأكيد .

كان قد انتهى من نزع ثياب (العقـرب) السوداء ، التى يرتديها فوق ثيابه ، فدسَّها فى حقيبته مع القناع ، والتقط سترته من الأريكة الخلفية للسيارة ، وهو يقول :

ـ أتعشَّم أن يفعل (مجدى) ما نصحته به .

سألتـه فى اهتمـام ، وهى تنحرف بالسيارة إلى الطريق الرئيسى :

ـ وما الذى نصحته به ؟!

التقط نسخة الكتاب الفاخر ، وناولها إياه ، وهو يقول :

ـ أن يفحص شحنة الكتب هذه .

انعقد حاجباها ، وهى تفحص الكتـاب بمنتهى الاهتمـام ، قبل أن تقول :

ـ وما الذى تتوقَّع أن يجده فيها ؟!

هزَّ رأسه ، قائلاً :

ـ لست أدرى .

وصمت لحظة ، قبل أن يضيف فى حزم :

ـ ولكـن من المسـتحيل أن يستورد رجل مثل (رشـاد السلباوى) ، شحنة من كتب ثقافيـة ، دون أن يكون وراء هذا هدف خفى .

قالت فى اهتمام :

ـ ربما هى شحنة تمويهية .

هزَّ كتفيه ، ومطَّ شفتيه ، مغمغمًا :

ـ ربمـا .

لم يكد ينطقها ، حتى سطع ضوء قوى فى وجهيهمـا ، وظهرت حواجز طـرق تسـدّ الطريـق أمامهمـا ، وعلـى جانبيها عدد من رجال الشرطة ، فغمغمت (غادة) فى عصبية :

ـ هل نتوقَّف ؟!

انعقد حاجباه ، وهو يعتـدل فـى مقعـده ، مجيبًـا فـى صرامة :

ـ بالتأكيد .

تساءلت فى عصبية أكثر :

ـ وماذا لو أنهم ينتظروننا بالتحديد ؟! أعنى لو أن العقيد (مجدى) قد اتصل بهم لاسلكيًا ، وطلب منهم أن ..

قاطعها فى حزم :

ـ هذا هو الأرجح .

سألته فى دهشة عصبية :

ـ وما زلت ترغب فى أن نتوقَّف .

قال بكل الصرامة والحزم :

ـ بالتأكيد .

ضغطت فرامل السيارة فى توتر ، وتركتها تتوقَّف علـى جانب الطريق ، على مسافة متر واحد من الحواجز ، فاتجه أحد رجال الشرطة نحوهما ، وهو يحمل سلاحه الشخصى ، ثم انحنى يطلق ضوء مصباحه اليدوى فى وجهيهما ، قبـل أن يبتسم ، قائلاً :

ـ مساء الخير ياسيِّد (نديم) .

واعتدل ، ليضغط زر جهاز الاتصال اللاسلكى ، قائلاً :

ـ من الحاجز الأوّل إلـى سيادة العقيد (مجدى) .. لقد استوقفنا الهدف بالفعل .. وفى المكان المتوقَّع .

وهنا شعرت (غادة) بكـل غضب وسخط الدنيـا ، وهـى تتطلَّـع إلـى حقيبـة (نديم) ، الملقـاة فـى المقعد الخلفـى ، وبداخلها ثوب وقناع العقرب ..

وفى أعماقها ، بدا لهـا أن المصيدة قد أطبقت عليهمـا هذه المرة ..

بمنتهى الوضوح ..

والقوة ..

★ ★ ★

« ما الذى تحويه هذه الكتب بالضبط ؟! »

ألقى العقيد (مجدى) السؤال فى عصبية شـديدة ، علـى المحامى (إدوارد) ، فانقلبت سحنة هـذا الأخير فى شدة ، وهو يجيب :

ـ وما الذى يمكن أن تحويه ؟! ثقافة ومعلومات عامة .. إنها مجرَّد موسوعات .

رماه (مجدى) بنظرة نارية ، وهو يسأله :

ـ لمـاذا إذن احتقن وجهـك ، عنـدما رأيت أحدها فى يد (العقرب) ؟!

صاح (إدوارد) فى حدة :

ـ ماذا دهاك أيها العقيد ؟! هل فقدت القدرة على التمييز ، بين اللـص والشـريف ؟! هل نسيت أنك هنا لتلقى القبـض على ذلك المقنَّع ، الذى اقتحم مخازننا عنوة ؟!

قال (مجدى) فى صرامة :

ـ أنا هنا لتطبيق القانون ، وتحقيق العدالة .

صاح (إدوارد) :

ـ حقًّا ؟! لماذا عجزت ورجالك عن الإمساك بذلك المقنَّع المتسلِّل إذن ؟!

رفع (مجدى) جهاز الاتصال اللاسلكى ، وهو يهتف :

ـ ألم تسمع بنفسك ؟! لقد استوقفته دوريتنا على الطريق .

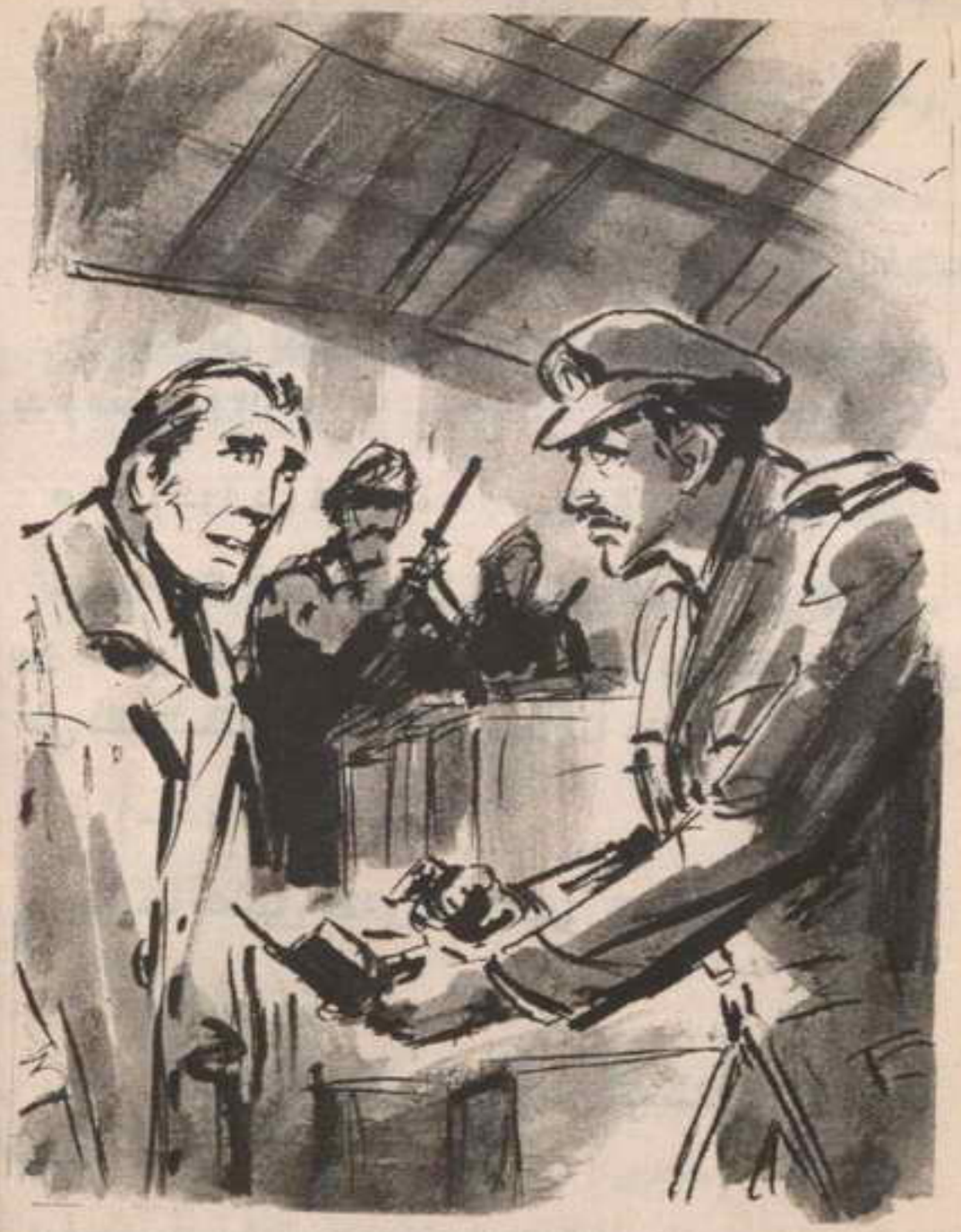

رفع (مجدى) جهاز الاتصال اللاسلكى ، وهو يهتف :
ـ ألم تسمع بنفسك ؟! لقد استوقفته دوريتنا على الطريق ..

هتف (إدوارد) :

ـ دوريتكم استوقفت (نديم فوزى) ، وليس (العقرب) .

انعقد حاجبا (مجدى) فى شدة ، وهو يقول فى صرامة :

ـ وكيف عرفت أنه (نديم فوزى) ؟!

انتفض جسد (إدوارد) ، وهو يقول فى عصبية :

ـ ماذا تعنى ؟!

بدا (مجدى) شرسًا ، علىٍ نحو عجيب ، وهو يلوِّح فى وجهه بجهاز اللاسلكى ، قائلاً :

ـ أعنى أن أحدًا لم يذكر اسم (نديم فوزى) كاملاً قط .. لقد اتصلت برجالى ، وطلبت منهم إيقاف سيارة (نديم) إذا ماوجدوها على الطريق ، تتجه نحو (القاهرة) .. وعندما أبلغونى بإيقافها ، اكتفوا بقول : إنهم قد استوقفوا الهدف ، فمن أين جئت بلقب (نديم) ؟!

صمت (إدوارد) لحظة ، قبل أن يقول فى حدة :

ـ إنه محام مثلى ، ومن الطبيعى أن أعرفه .

قال (مجدى) فى سرعة وصرامة :

ـ ولكن ليس من الطبيعى أن تربط بينه وبين (العقرب) .

ثم تراجع فى حركة حادة ، مستدركًا :

ـ إلا إذا ..

سأله (إدوارد) فى عصبية :

ـ إلا إذا ماذا ؟!

لم يجب (مجدى) سؤاله ، وإنما تطلَّع إلى عينيه مباشرة ، كما لو أنه يقرأ ما يدور فى أعماقه ، قبل أن يقول فى بطء صارم :

ـ لو أنك نطقت اسم (العقرب) ، أمام أى مواطن عادى ، لما وجدت لديه أى صدى له ، ولو أخبرته باسم (نديم فوزى) ، لتذكَّر أنه قد شاهد لافتة على مكتب فى وسط المدينة تحمل هذا الاسم ، أو ربما كان يجهله تمامًا .. قلائل هم من يعرفون (نديم فوزى) ، وندرة من يعرفون (العقرب) وفئة واحدة فحسب ، هى التى يمكنها أن تربط بين هذا وذاك .

سأله (إدوارد) فى حذر زائد :

ـ أية فئة تلك ؟!

رمقه (مجدى) بنظرة صارمة أخرى ، قبل أن يقول :

ـ قل لى ياسيِّد (إدوارد) : هل يمكننى الحصول على أحد هذه الكتب الأنيقة ؟!

تضاعف حذر (إدوارد) ، وهو يسأله :

ـ ولماذا ؟!

ارتسمت ابتسامة خبيثة على شفتى (مجدى) ، وهو يقول :

ـ سأدفع ثمنه بالطبع .

ران عليهما الصمت لحظات ، وكل منهما يتطلَّع إلى عينى الآخر ، بنظرة تحمل تحديًا غامضًا مكبوتًا ، قبل أن يقول (إدوارد) فى روية حذرة :

ـ غدًا سأرسل إليك موسوعة كاملة ياسيادة العقيد .

انحنى (مجدى) يلتقط نسخة ، من الصندوق الذى فتحه (العقرب) ، قائلاً :

ـ سأكتفى بكتاب واحد ، و ...

أمسك (إدوارد) معصمه فجأة فى قوة ، وهو يقول فى صرامة عصبية :

ـ كـلاً .

رفع (مجدى) عينيه إليه فى تحد ، قائلاً :

ـ وماذا لو أصررّت ؟!

أجابه (إدوارد) فى حدة :

ـ فى هذه الحالة ، سأصرّ أنا على وجود إذن من النيابة .

غلفهما الصمت بضع لحظات أخرى ، وكلاهمـا يتطلّـع إلـى عينى الآخر مباشرة ، قبل أن يقول (مجدى) فى صرامة ، وهو يفلت نسخة الكتاب :

ـ فليكن .. ما دمت تصرّ .

وأشار إلى رجاله ، مستطردًا .

ـ سننصرف الآن يـاسـيّد (إدوارد) ، ولكـن ثـق بأننـا سنعود غدًا .

ثم التفت إليه ، وأطلّت من عينيه نظرة غاضبة صارمة ، وهو يضيف :

ـ مع إذن النيابة .

انعقد حاجبا (إدوارد) فى شدة ، وهـو يتـابع انصـراف رجال الشرطة ، حتى قال أحد رجال الأمن فى توتر :

ـ هل ألقوا القبض على ذلك المقنّع بالفعل ؟!

ازداد انعقاد حاجبى (إدوارد) ، وهو يقول :

ـ لاتشغل ذهنك بهذا الآن ، فلدينا الكثير مـن العمـل هنا الليلة .

والتقط هاتفـه المحمـول مـن جيبـه ، وهـو يضيـف فـى صرامة :

ـ أما ذلك المقنّع ، فسنستدعى من يمكنه التعامل معه .

قالهـا ، وهـو يضـغط أزرار هاتفـه الخلـوى فى سرعـة ، ثم أشار إلى الرجل ، ليبتعد عنـه ، قبـل أن يسمع صـوت محدثه عبر المحيط ، فيقول فى حزم :

ـ هاى (شارلى) .. إنه أنا (إدوارد) .. أتحدّث من (القاهرة) .. اسمعنى جيّدًا يا (شارلى) .. هناك باعوضـة تسبب لنـا الأرق هنا .. أخبر الرفاق فى (لوس أنجلوس) أننا نحتاج إلى مبيد قـوى ؛ ليخمد صوتها إلى الأبـد .. لا .. لن يمكننى الانتظـار حتى ترسلوا مبيدًا مـن الولايـات المتحدة .. دعهم يرسلوا أحد مبيدات (أوروبا) .. نعم .. بأسرع وسيلة ممكنة .

ثم أنهى الاتصـال ، وحاجباه يكادان يمتزجان ، من فـرط انعقادهما ، وهو يغمغم بكل سخط وغضب الدنيا :

ـ فليكن أيها (العقرب) .. لقد أفسدت الأمور كلها هنا .. لنر كيف ستواجه مبيدًا محترفًا .

نطقها ، ثم أعاد هاتفـه إلى جيبـه ، وهو يلقى أوامره الجديدة لرجاله ..

الأوامر التى ستشعل النيران فى كل شىء ..

كل شىء ..

بلا استثناء .

* * *

٥ ـ صراع الذئاب ..

تـألَّقت عينـا العقيد (مجدى) فى ظفر واضح ، وهو يوقف سيارته عند حاجز الطريق ، وغادرهـا فى انفعال ، واتجه فى خطوات متئدة نحو سيارة (نديم) ، التى جلس

داخلها هذا الأخير فى هدوء مستفز ، على عكس زميلته (غادة) ، التى بدت شديدة العصبية ، وهى تهتف :

ـ هل يمكننى أن أفهم معنى ما يحدث هنا ؟!

ابتسم (مجدى) فى سخرية عصبية متشفية ، وهو يقول :

ـ ألا تفهمين معناه حقًا ؟!

أشار إليه أحد رجال الشرطة ، قائلاً فى توتر :

ـ إنهما يرفضان الخروج من السيارة .

انعقد حاجبا (مجدى) فى غضب ، وهو يقول فى حدة :

ـ سنجبرهما على هذا .

أشار (نديم) بسبَّابته ، قائلاً فى هدوء صارم حازم :

ـ أحذرك من فعل هذا ، ففى حكم القانون ، تعتبر السيارة مكانًا خاصًّا ، تمامًا مثل المنزل ، ولا يمكنك اقتحام كليهما ، إلا بناءً على أمر مباشر ، أو إذن من النيابة ، وإلا تعرَّضت للمساءلة ، ولاحتمال التقاضى والتعويض أيضًا .

قال (مجدى) فى حدة :

ـ وماذا عن الاشتباه ؟!

هزَّ (نديم) كتفيه ، قائلاً :

ـ لابد أن تسبقه تحريات جادة ، أو يقترن بعدم حمل الشخص لأوراقه الشخصية أو هويته ، وبالنسبة لحالتنا

هذه ، لقد عملنا معًا لبعض الوقت ، وهذا يعنى أنك تعرفنى جيِّدًا ، ومن السهل إثبات هذا ، مما يحتم أن ..

قاطعه (مجدى) فى غضب :

ـ وماذا لو ضربت بكل هذا عرض الحائط ، وقمت بتفتيش سيارتك قسرًا ، وعثرت فيها على زى (العقرب) .

مطَّ (نديم) شفتيه بلا مبالاة ، وهو يقول :

ـ لن يكون لهذا أية أهمية ؛ لأنه تفتيش غير قانونى ، وكل ما ينجم عن خطأ هو خطأ أيضًا ، و ...

قاطعه (مجدى) بصيحة هادرة :

ـ فليكن .. لن يعنينى أن ترفض النيابة الاعتراف بالدليل .. يكفينى أن أتيقن أنا من الأمر بصفة شخصية .

هزَّ (نديم) رأسه ، قائلاً :

ـ كان يمكنك هذا بالفعل ، لولا أنك أضعت وقتًا ثمينًا فى هذه المحاورة .

سأله (مجدى) فى عصبية شديدة :

ـ ماذا تعنى ؟!

ارتسمت على شفتى (نديم) ابتسامة ، لم ترقى له أبدًا ، وهو يشير بسبَّابته إلى ما خلف (مجدى) ، مجيبًا :

ـ أعنى أن رئيسك قد وصل .

استدار (مجدى) إلـى حيث يشير (نديم) ، فى حركـة حادة ، والتقى حاجباه فى غضب شديد ، عندما رأى سيارة اللواء (حلمى) تتوقَّف ، ويغادرها هذا الأخير ، وهو يقول فى حدة :

ـ ماذا تفعل هنا أيها العقيد ؟!

أطلقت (غادة) من أعمـق أعماقهـا زفرة حـادة ، وهـى تهتف :

ـ أخيرًا .

أما (مجدى) ، فقال فى عصبية :

ـ أؤدى عملى يا سيادة اللواء .

قال اللواء (حلمى) فى غضب صارم ، وهو يتجه نحوه :

ـ لست أذكر أننى قد نقلتك إلى قسم دوريات الطرق السريعة أيها العقيد .

صاح (مجدى) فى حدة :

ـ لدى ما يبرِّر اعتقالى لهذا الرجل يا سيادة اللواء .

سأله فى صرامة :

ـ وما مبرِّراتك ؟!

قال فى عصبية شديدة :

ـ أشكّ فى أنه (العقرب) .

صاح اللواء (حلمى) فى غضب :

ـ تشكّ ؟! فقط تشكّ ؟!

هتف (مجدى) ، وقد تضاعفت عصبيته :

ـ لـو أننى عثرت فى سيارته على ثيـاب (العقـرب) ، فسوف ..

قاطعه اللواء (حلمى) فى حدة غاضبة :

ـ لـو ؟! أهذا ما تعلمته طوال عملك فى الشرطة ؟! لـو ؟!

قال (مجدى) فى حدة :

ـ سيادة اللواء .. أرى أنك تنحاز بشدة لـ ...

قاطعه (نديم) فى سرعة :

ـ للقانون يا عزيزى (مجدى) .. للقانون وحده .

احتقن وجه (مجدى) فى شدة ، وهو يدير عينيه إليه فى حركة حادة ، فى نفس الوقت الذى عقد فيـه اللـواء (حلمـى) ساعديه أمام صدره ، قائلاً فى صرامة :

ـ والآن ، لو أنك تحمل إذنًا من النيابة بالتفتيش فـافعل ، أما لو لم تكن ، فلينصرفا فورًا .

ثم التفت إلى رجال الشرطة ، مكملاً بنفس الصرامة :

ـ ارفعوا الحواجز .

أسرع الرجال يزيحون حواجز الطريق ، فأدارت (غادة) محرّك سيارة (نديم) ، وهى تغمغم فى توتر شديد :

ـ سأغادر هذا المكان بأقصى سرعة .

ابتسم (نديم) ، وهو يقول :

ـ بل بكل هدوء وثقة يا عزيزتى .. هذا سيستفز صديقنـا (مجدى) أكثر .

لم يكد يتم عبارته ، حتى ارتفع أزيز جهاز اللاسلكى ، الذى يحمله (مجدى) ، فرفعه هذا الأخير إليه فى سرعة ، قائلاً :

ـ العقيد (مجدى) .. ماذا هناك ؟!

اتسعت عينـاه بشدة ، علـى نحو جذب انتبـاه الجميـع ، وجعل (غادة) تتمتم :

ـ ترى ماذا ؟!

قبل أن تتمّ عبارتها ، هتف (مجدى) بانفعال شديد :

ـ سأحضر على الفور .

ثم أنهى الاتصال ، واستدار إلى اللـواء (حلمـى) مستطردًا بكل انفعاله :

ـ مخازن (رشاد السلباوى) .. لقد اشتعلت فيها النـيران كلهـا .

واتسعت عيون الكل عن آخرها ..

فقد كانت مفاجأة ..

مذهلة ..

★ ★ ★

انتفاضة مباغتة سرت فى جسد (غادة) ، وجعلتها تهبّ من نومها مضطربة ، قبل أن تتطلع فيما حولها ، ثم تطلق زفرة عصبية ، مغمغمة :

ـ آه .. مرة أخرى أقضى ليلتى فى المكتب .

نهضت من الأريكة الوثيرة فى حجرة مكتبها ، وتثاءبت فى إرهاق ، وهى تلقى نظرة على ساعة يدها ، قبل أن تضيف :

ـ السابعة والربع .. عظيم .. يبدو أن هذه أضمن وسيلة ، لكى أصل إلى العمل مبكرًا ، وأجد موضعًا لانتظار السيارة أيضًا .

مالت تتطلّع إلى المرآة الصغيرة فى حجرتها ، ثم مطت شفتيها ، مكملة :

ـ وأضمن وسيلة لأبدو قبيحة فى الصباح أيضًا .

أخرجت حقيبتها ، وراحت تولى زينتها عناية سريعة ، قبل أن تغادر حجرتها ، وتتجه إلى حجرة (نديم) ، التى ترك بابها مفتوحًا على مصراعيه ، وقالت وهى تدلف إليها :

ـ من الواضح أنك لم تنم لحظة واحدة منذ مساء أمس .

غمغم ، وهو يقلب الكتاب الأحمر الفاخر بين يديه :

ـ لقد حاولت ... وفشلت .

ثم مال إلى الأمام ، مستطردًا فى شىء من التوتر ، أفسد هدوءه التقليدى :

ـ فحصت هذا الكتاب أكثر من مائة مرة ، ولم أجد شيئًا .

جلست على مقعد قريب ، وهى تقول :

ـ ربما الأمر لايكمن فى الكتاب نفسه .. ربما فى الصناديق التى تحوى الكتب ، أو فى مكان سرى بالمخزن ، أو ...

قاطعها فى حزم :

ـ كلاّ .. إنك لم ترى وجه (إدوارد) ، عندما لوّحت له بالكتاب .. ثم إن إحراق المخازن يعنى محاولة إخفاء أمر ما .. أمر يتعلّق بشحنة الكتب هذه .

قلبت كفيها فى استسلام ، قائلة :

ـ ولكنك لم تجد شيئًا .

قلّب الكتاب بين يديه مرة أخرى ، قبل أن يقول فى حزم :

ـ ربما لم أبحث بأسلوب سليم .

تراجعت فى مقعدها ، قائلة فى توتر :

ـ كل مرة أتأكَّد من أنك عنيد للغاية يا (نديم) .

قال فى سرعة :

ـ هذا صحيح .

ثم مال نحوها ، مستدركًا :

ـ ولكننى لست مكابرًا .

ظهر عم (أحمد) فراش المكتب ، فى هذه اللحظـة ، وبدت عليه الدهشة ، وهو يقول :

ـ أنتما هنا ؟! فى هذه الساعة ؟!

لوَّح (نديم) بيده ، قائلاً :

ـ العمل مرة أخرى يا عم (أحمد) .. ما رأيك لو أعددت لنا قدحين من القهوة المركزة ؟!

ارتفع من خلف عم (أحمد) صوت صارم قاسٍ ، يقول :

ـ اجعلهما خمسة .

ثم برز (إدوارد) عند باب حجرة مكتب (نديم) ، وخلفه

اثنان من رجال أمن شركات (رشاد السلباوى) ، بجسديهما الضخمين ، وعضلاتهما المفتولـة ، وتلـك النظـرة الشرسـة المتحفزة ، المطلَّة فى عيونهما ..

وبحركـة سـريعة ، أمـال (نديـم) يـده الممسكة بالكتـاب الأحمر الفاخر ، خلف حافة المكتب ، ودسَّه فى درج مفتـوح ، ثم أغلق ذلك الدرج فى بطء ، وهو يقول هادئًا :

ـ يالها من زيارة ، فى هذه الساعة المبكِّرة !

من حركة عينى المحامى ، أدرك (نديم) أنه قد لمح ما فعله ، ولقد أعلن هذا بلهجته الصارمة القاسية ، وهو يقول :

ـ أظنك قد احتفظت بشىء يخصنا ، من باب الخطأ يا سيِّد (نديم) .

تراجع (نديم) فى مقعده بهدوء ، قائلاً :

ـ أى شىء هذا ؟!

نقلت (غادة) بصرها بينهما فى حذر ، والمحـامى يجيب فى شراسة :

ـ كتاب أحمر أنيق ، من القطع الكبير .. جزء من موسـوعة عامة بالتحديد .

صمت (نديم) لحظة ، ثم مال إلى الأمام ، قـائلاً بنفس الهدوء ، وإن اكتست نبرته بشىء من الصرامة هذه المرة :

ـ وبمَ يفيدكم هذا الجزء ، وقد احترقت الموسوعات كلها ، حسبما سمعت ؟!

احتقن وجه المحامى غضبًا ، ومدّ يده إلى الأمام ، قـائلاً بكل الصرامة :

ـ الكتاب يا سيِّد (نديم) .

تبادلا نظرة طويلة متحدية ، قبل أن يتراجع (نديم) فى مقعده ، ويلتقط سمّاعة هاتفه ، قائلاً فى صرامة واضحة :

ـ ليس لدى أى شىء يخصكم يا سيد (إدوارد) ، ولو لـم تغادروا مكتبى الآن ، فسوف .

قبل أن يتمّ عبارته ، تراجع المحامى الذئب خطوة حـادة إلى الخلف ، ثم أشار بيده فى صرامة ، فاندفع الحارسان فـى آن واحد ، وكل منهما يستلّ مسدسه ، وأحاط أحدهما عنق عم (أحمد) بذراعه القوية ، وألصق فوهة مسدسـه بعنقه المتغضن ، فشهق المسكين فى رعـب ، فـى نفس اللحظة التى انقضّ فيها الثانى على (غـادة) ، وجذبها من شعرها

فى قسوة ، قبل أن يلصق فوهـة مسدسـه بأذنهـا اليمنـى ، قائلاً فى وحشية :

ـ كلمة واحدة وأصنع قناة مباشرة بين أذنيك .

هبَّ (نديم) من مقعده ، قائلاً فى غضب :

ـ ما هذا بالضبط ؟!

أجابه (إدوارد) فى سرعة وصرامة :

ـ أسـلوب أفضـل فى التعامل مـع عقرب مثلك يا سيِّد (نديم) .

صاح به (نديم) :

ـ هذا الأسلوب ينقلك ، من قائمة المحامين إلى خانة البلطجية .

أجابه (إدوارد) فى تحد :

ـ بالضبط .. ولكن بأسلوب قانونى وذكى أيضًا ، فالمسدسان مزوّدان بكاتمى صوت ، كما لابد أنك قد لاحظت ، ولدينـا عشرة شهود على الأقل ، على أن ثلاثتنا لم نغادر مقرّ الشركة لحظة واحدة ، منذ اندلـع حريق المخـازن ، وحتـى تحضر الشرطة لاستجوابنا .. ثم إن المسدسين مستعملان ، وكلاهمـا سيتم تعرّفه كسلاح مستخدم فى جرائم سابقة فى الصعيد .

تطلَّع (نديم) لحظة إلى الرعب المطلَ من عينى (غادة) وعم (أحمد) ، وإلى الوحشية الواضحة فى نظرات وتصرفات رجلى أمن شركات (رشاد السلباوى) ثم إلى تلك الصرامة القاسية الشرسة ، فى وجه (إدوارد) ، قبل أن يقول فى توتر :

ـ ماذا تريد بالضبط ؟!

حملت كلمات (إدوارد) نبرة ظافرة ، وهو يقول :

ـ الكتاب ياسيِّد (نديم) ، وأية نتائج حصلت عليها من فحصه .

اخترقت العبارة الأخيرة مخ (نديم) مباشرة ، وأطلقت صفارة إنذار كبيرة .. إذن فالكتاب يحوى شيئًا ما بالفعل ..

شىء جازف (إدوارد) بهجوم مباشر لاستعادته ..

وبأى ثمن ..

« الكتاب والنتائج ياسيِّد (نديم) ، وإلا .. »

أطلق (إدوارد) عبارته فى صرامة وحشية رهيبة ، فمطَ (نديم) شفتيه ، قائلاً :

ـ فليكن .

وفى استسلام عجيب ، انحنى يفتح درج مكتبه ، و ...

« انتظر .. »

هتف (إدوارد) بالكلمة فى حدة ، وهو يستلّ مسدسه ، ويصوّبه إلى (نديم) ، مستطردًا فى عصبية :

ـ ببطء ، ودون أية مفاجآت .

ارتسمت ابتسامة ساخرة ، على ركن شفتى (نديم) ، وهو يقول :

ـ اطمئن أيها الحقير .. لست أهوى التعامل مع الأسلحة النارية .

ثم اعتدل ، وهو يحمل ذلك الكتاب الأحمر الأنيق ، مستطردًا :

ـ فالأسلحة لاتكون بالضرورة نارية .

مدَّ (إدوارد) يده فى لهفة ، ليلتقط الكتاب ، و ...

وفجأة ، ارتفع رنين جرس الباب ، مع صوت قوى ، يهتف :

ـ افتح الباب .. شرطة .

هتف (إدوارد) بالكلمة فى حدة ، وهو يستل مسدسه ، ويصوبه إلى (نديم) ..

تراجع (إدوارد) بحركة حادة ، وامتقع وجهه بشدة ، واضطرب حارساه ..

وبحركة مباغتة سريعة ، وثب (نديم) عبر المكتب ، وانقضّ على الرجال الثلاثة ..

واشتعل الموقف كله دفعة واحدة ..

بمنتهى العنف .

★ ★ ★

٦ ـ المبيد ..

انحنى فنى المعمل الجنائى يفحص بقايا الحريق فى اهتمام ، قبل أن يهزّ رأسه فى حيرة ، مغمغمًا :

ـ عجبًا !

تثاءب العقيد (مجدى) فى إرهاق ، قبل أن يسأله :

ـ ماذا هناك ؟!

هزّ الفنى رأسه مرة أخرى ، قائلاً :

ـ لقد كان حريقًا مدمرًا ، حتى إنه قد التهم كل شىء ، كما لو أنه لا توجد أية نظم أمن مضادة للحريق ، فى المكان كله .

قال (مجدى) فى اهتمام :

ـ ولكنها كلها كتب .. أوراق شديدة الاشتعال .

عاد الفنى يهزّ رأسه ، ويقول :

ـ ولو .. أين نظم الأمن الصناعى إذن ؟! لقد عاينت يومًا حريقًا ضخمًا ، فى مطبعة كبرى ، استغرق ما يقرب

من الساعة ، وعلى الرغم من هذا ، كانت هناك بعض الكتب ، التى لم يصبها التلف تمامًا ؛ لأن أجهزة إطفاء الحريق غمرتها بالماء أو الرغوة المطفئة .

تلفّت العقيد (مجدى) حوله ، مغمغمًا :

ـ من الواضح أنهم لا يستخدمون هذه النظم هنا .

نهض الفنى ، قائلاً :

ـ مستحيل ! كيف حصلوا على الترخيص إذن ؟!

ثم أضاف فى سرعة :

ـ إلا إذا ..

سأله (مجدى) بسرعة أكبر :

ـ إلا إذا ماذا ؟!

هزّ الفنى رأسه ، وتردَّد لحظة ، قبل أن يقول فى حذر :

ـ إلا إذا كان أحدهم قد تعمَّد ألا تعمل أجهزة إطفاء الحريق .

انعقد حاجبا (مجدى) فى شدة ، وهو يسأله :

ـ هل تعنى أن هذا الحريق متعمَّد ؟!

تراجع الرجل ، ولوّح بكفه فى ذعر ، هاتفًا :

ـ أنا لم أقل هذا .. هذا قرار سابق لوقتـه ، وليس من حقى حتى أن أتخذه .. لابد من إتمام الفحص أوّلاً ، و ...

قاطعه (مجدى) فى حدة :

ـ لست أسألك رأيًا رسميًا يا رجل .

تلفّت الرجل حوله فى هلع ، قبل أن يهمس :

ـ أتعنى أننى لست مضطرًا لتكرار هذا أمام وكيل النيابة ، أو القاضى ، أو ...

قاطعه (مجدى) بزمجرة عصبية ، قائلاً :

ـ لست مضطرًا لأى شىء .

تلفّت الرجل حوله مرة أخرى ، ثم همس فى انفعال :

ـ لو أردت رأيى الشخصى إذن ، فهو حريق متعمّد .

اعتدل (مجدى) ، مغمغمًا فى توتر :

ـ هكذا !

مال الرجل على أذنه ، مكملاً :

ـ أما بالنسبة للكتب ، فلم تحترق كاملة .

هتف (مجدى) فى غضب :

ـ ولكنك قلت : إن ..

قاطعه الرجل فى ذعر :

ـ اخفض صوتك باللّه عليك .. إننى أقصد أن الكتب لم تكن كاملة ، عندما تعرّضت للحريق .

عاد حاجبا (مجدى) ينعقدان ، وهو يتساءل فى عصبية :

ـ ماذا تعنى ؟!

مال نحوه أكثر ، وهو يلوّح ببقايا غلاف أحمر محترق ، وهو يجيب :

ـ لقد انتزعوا منها جزءًا مهمًا .

وانخفض صوته ، وكأنما يخشى أن يسمع نفسه ، وهو يضيف :

ـ الكعب .

واتسعت عينا (مجدى) عن آخرهما ..

فقد كانت مفاجأة بحق ..

مفاجأة جديدة ..

ومدهشة ..

★ ★ ★

من المؤكَّد أنه ، وعلى الرغم من سنوات عمله فى المحاماة ، إلا أن (نديم فوزى) لم يفقد لياقته قط ، كرجل شرطة سابق ..

وكعقرب حالى ..

فقد وثب عبر مكتبه ، وركل مسدس (إدوارد) ركلة قوية ، قبل أن يلقى الكتاب الأحمر الكبير بكل قوته ، نحو حارس الأمن ، الذى يمسك عم (أحمد) ، فى نفس اللحظة التى انزلقت فيها (غادة) بمرونة مدهشة ، من يد الحارس الآخر ، ثم دارت حول نفسها فى رشاقة ، لتهوى بقبضتها على أنفه مباشرة ..

وفى لحظة واحدة ، ارتفعت تأوهات الحارس الثانى ، مع تحطم أنفه ، وانطلقت شهقة مكتومة من الحارس الأوَّل ، الذى أصاب الكتاب رأسه ، وألقاه أرضًا فى عنف ..

وبكل الرعب ، تراجع عم (أحمد) ، وانكمش فى أحد الأركان ،

فى حين دار (نديم) حول نفسه ، ليركل الحارس الأوَّل ركلة كالقنبلة فى أنفه ، ثم أخرى فى معدته ، فى نفس اللحظة التى انقضَّ فيها الحارس الثانى على (غادة) ، وهو يطلق صرخة غاضبة وحشية ..

وبنفس الرشاقة ، انخفضت (غادة) ، متفادية انقضاضة الحارس الثانى ، وتركته يتجاوزها ، ثم دارت حول نفسها ، وركلته فى ظهره بكل قوتها ، فاندفع إلى الأمام ، ليرتطم رأسه بحافة مكتب (نديم) ، ثم يسقط أرضًا ، وهو يطلق شخيرًا عجيبًا مختنقًا ..

أما الحارس الأوَّل ، فقد تراجع مع ضربتى (نديم) ، ثم عاد ينقضّ فجأة على (نديم) ، ويكيل له لكمة عنيفة ، تراجع معها (نديم) فى حدة ، وارتطم بالمحامى (إدوارد) ، الذى كبَّل ذراعيه من الخلف ، صائحًا :

- هيا يا (جابر) .. حطم عنقه .

هوت قبضة (جابر) بكل قوتها على عنق (نديم) ، إلا أن هذا الأخير دفع جسده إلى الخلف بغتة ، فاختلّ توازن (إدوارد) ، وسقط معه أرضًا ، فطاشت لكمة (جابر) ، فى نفس اللحظة التى ارتفعت فيها قدم (نديم) ، لتركله فى

فكه ركلة قوية عنيفة ، ألقته خلفًا ، ليسقط على ظهره أرضًا ، فاستقبلته (غادة) بركلة أخرى ، هاتفة :

ـ هيا .. اسقط أيها الوغد .

انطلق من حلق (جابر) خوار كالثور ، ثم انهار جسده فاقد الوعى ، فى نفس اللحظة التى انفلت فيها (نديم) من ذراعى (إدوارد) ، ثم وثب يلتقط مسدس هذا الأخير ، ويصوِّبه إليه ، قائلاً :

ـ أعتقد أن اللعبة قد انتهت هنا ياسيِّد (إدوارد) .

أدار (إدوارد) بصره بين رجليه الفاقدى الوعى ، قبل أن يقول فى عصبية ، وهو ينهض من سقطته :

ـ لو أنك تتصوَّر أنك بهذا قد انتصرت ، فأنت واهم .

ابتسم (نديم) فى سخرية ، وهو يقول :

ـ ولو أنك تتصوَّر أنك عبقرى ، فهذا أكبر دليل على حماقتك ، خاصة وقد حدثتك بجهاز إنذار بسيط ، أوهمك بقدوم رجال الشرطة .

عدَّل (إدوارد) رباط عنقه ، وهو يقول :

ـ خدعة طريفة ياسيِّد (نديم) .. عيبها الوحيد هو أنه يستحيل تكرارها .

هزَّ (نديم) كتفيه ، قائلاً :

ـ مازال فى جعبتى الكثير .

مال (إدوارد) إلى الأمام ، وهو يقول فى صرامة غاضبة :

ـ وأنا أيضًا .

مع آخر حروف كلمته ، ارتفع رنين هاتفه الخلوى بغتة ، فالتقطه بحركة آلية ، وقال فى عصبية :

ـ (إدوارد) .

أتاه صوت أحد رجاله من المطار ، وهو يقول :

ـ سيِّد (إدوارد) .. إنه أنا .. لقد وصل المبيد من (إيطاليا) .

تألَّقت عينا (إدوارد) ، وهو يهتف :

ـ وصل ؟!

ثم اتسعت ابتسامة ظافرة كبيرة على وجهه ، وهو يكمل :

ـ عظيم .. قـل لـه : إننـى أريـده أن يبدأ عملـه فورًا .. وسيحصل على مكافأة سخية للغاية ، لو أتمه بنجاح .

أنهى المحادثة ، وأعاد الهاتف إلى جيبه ، فى نفس اللحظة التى استعاد فيها حارساه وعيهما ، فقال (نديم) فى حذر :

ـ أراهن أنه خبر شرير ، ذلك الذى أسعدك هكذا .

رمقه (إدوارد) بنظرة مستفزة ، قائلًا :

ـ بالنسبة لى هو خبر ممتاز يا سيِّد (نديم) .

ثم أشار إلى حارسيه ، مستطردًا :

ـ أعتقد أنك لن تبلغ الشرطة بما حدث ؛ لأن هذا يضعك أيضًا فى دائرة التساؤل ، خاصة وأن الكل رأى (العقـرب) أمس ، وهو ينصرف بنسخة الكتاب هذه ، وهذا يعنـى أنـه يمكننا أن ننصرف بكل هدوء .

قال (نديم) فى صرامة :

ـ على ألا تعودوا مرة أخرى .

ثم انتزع خزانـة مسدس (إدوارد) ، وألقاها فـى سلة المهمـلات ، وجذب مشط المســدس ، ليفـرغ الرصاصـة المتبقية فى ماسورته ، قبل أن يلقيه إليه ، مستطردًا :

ـ المسدسان الآخران سنتخلَّص منهما بمعرفتنا .

قال (إدوارد) فى سخرية :

ـ لا بأس .. لدينا عشرات مثلهما .

وأشار مرة أخرى إلى رجاله ، واتجه ثلاثتهم نحو البـاب ، فهتف بهم (نديم) فى صرامة :

ـ تذكروا ألا تعودوا هنا مرة أخرى .

ابتسم (إدوارد) فى سخرية ، قائلاً :

ـ من يدرى ؟! ربما اضطررنا للعودة ..

ثم استدار يتطلَّع إلى عينى (نديم) مباشرة ، مستطردًا :

ـ للتعزية .

قالها ، وأطلق ضحكة ساخرة عالية ، وهو ينصرف مـع حارسيه ، فهتف عم (أحمد) ، فى ارتياع مستنكر :

ـ ألن تبلغ الشرطة حقًا ؟!

ابتسم (نديم) ، قائلاً :

ـ لا تقلق نفسك بهذا يا عم (أحمد) .. هيا .. اتس أمر

القهوة ، وسنكتفى بكوبين من مشروب النعناع الساخن لتهدئة أعصابنا .

حدَّق الشيخ فى وجهه لحظة ، ثم لم يلبث أن هـزَّ كتفيه فى استسلام ، مغمغمًا :

ـ يا للشباب !

ابتسم (نديم) ، وسأل (غادة) :

ـ أأنت بخير ؟!

أشارت بيدها ، قائلة :

ـ لم أكن أبـدًا أفضـل ، ولكن هـل تعلم مـا الـذى يعنيـه ماحدث الآن ؟!

انحنى يلتقط الكتاب الأحمر الملقى أرضًا ، وهو يجيب :

ـ أهم ما يعنيـه هو أن (رشـاد السلباوى) مجرَّد واجهة لأمر إجرامى رهيب ، يديره فعليًا ذلك الذئب (إدوارد) ، و ...

بتر عبارته بغتة ، عندما انفصل كعب الكتاب بين أصابعه على نحو مفاجئ ، فرفعه يحدِّق فيه ، قبل أن يهتف :

ـ رباه ! من كان يتصوَّر هذا ؟!

اندفعت (غادة) نحوه ، قائلة :

ـ ماذا وجدت ؟!

ولم تكد تتطلَّع إلى كعب الكتاب ، الذى يحمله فى يده ، حتى سرت فى جسدها كله ارتجافة قوية ..

فقد كان ما تراه مدهشًا ، وغير متوقَّع ..

على الإطلاق .

* * *

تابع البقية فى الكتاب القادم

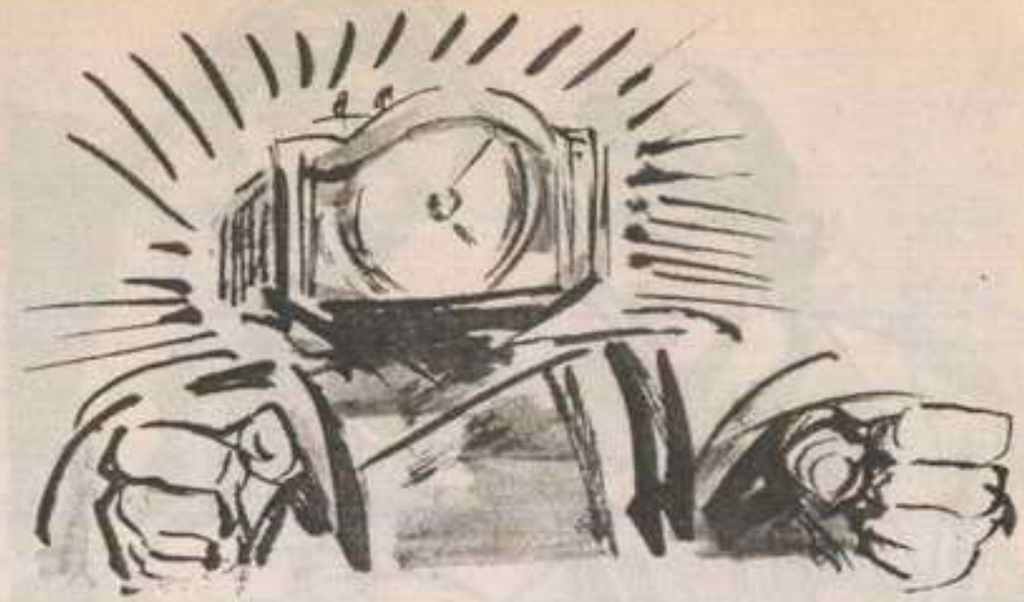

القنبـلة

(قصة قصيرة)

على الرغم من حالة التوتر الشديد ، التى سادت مبنى مديرية الأمن ، وأفصحت عن نفسها فى وضوح ، مع وقع الأقدام ، التى تعدو فى كل مكان ، والهتافات العصبية غير الواضحة ، التى تتناهى إلى مسامعى ، من الممر الخارجى ، إلا أننى ظللت جالسًا فى مكتبى ، أدخن سيجارتى فى هدوء ، وكأنما لا يعنينى الأمر كله ، حتى اقتحم أحد الضباط الجدد مكتبى دون استئذان ، هاتفًا :

ـ سيادة اللواء يطلبك فورًا أيها الرائد .

اعتدلت بنفس الهدوء المستفز ، وسألته :

ـ ماذا هناك ؟!

هتف بانفعال :

ـ يقولون : إن بعضهم دسّ قنبلة هنا .

قلت ، وأنا أنهض من مقعدى فى سرعة :

ـ قنبلة ؟!

لم تمض دقيقة واحدة ، على قولى هذا ، حتى كنت أقف أمام مدير الأمن ، الذى لوّح بذراعيه كلهما ، وهو يهتف فى انفعال شديد :

ـ هل تصدّق هذا أيها الرائد ؟! هل تصدّق أن أحدهم قد نجح فى دس قنبلة زمنية هنا ؟! فى مديرية الأمن ؟!

أشرت بيدى ، قائلاً فى حزم :

ـ معذرة يا سيادة اللواء ، ولكن كيف وصلتنا هذه المعلومة ؟!

لوَّح بذراعه ، واحتقن وجهه ، وكأنما يعجز لسانه عن النطق ، ثم لم يلبث أن ترك جسده يهوى على مقعده ، قائلاً :

ـ بلاغ من مجهول .. محادثة هاتفية ، من هاتف عمومى فى أحد الشوارع ، أخبرنا بالأمر .

سألته فى اهتمام :

ـ وهل صدقتم قوله ؟!

مطَّ شفتيه ، ولوَّح بيده مرة أخرى ، قائلاً :

ـ لقد منحنا دليلاً لا يقبل الشك :

سألته فى لهفة :

ـ وما هو ؟!

بدا صوته محبطًا محنقًا ، وهو يجيب :

ـ أخبرنا أنا سنجد قنبلة أخرى هيكلية ، أسفل دولاب الذخيرة ، فى حجرة السلاحليك .

ثم مال إلى الأمام ، وقال فى مرارة :

ـ ولقد عثرنا عليها ، فى الموضع الذى وصفه بالضبط .

هتفت بانفعال :

ـ مستحيل !

ضرب المدير سطح مكتبه بقبضته ، قائلاً :

ـ هذا يثبت وجود القنبلة الحقيقية .

قلت فى سرعة :

ـ ويثبت أمرًا آخر أيضًا .

أطلَّت من عينيه نظرة متسائلة فملت نحوه ، مستطردًا فى حزم :

ـ أن للرجل شريكًا هنا ، فى مديرية الأمن .

ظهر الذعر على وجه المدير ولكننى تابعت بمنتهى الصرامة :

ـ الوصول إلى حجرة السلاحليك ليس بالأمر السهل ، وهو غير متاح إلا لبعض العاملين هنا ، وكبار الضباط ، وهذا يعنى أن أحدهم هو الذى وضع القنبلة فى الحجرة .

امتقع وجه المدير ، وهو يقول :

ـ ضابط خائن ! يا إلهى ! إنها كارثة !

قلت مؤمنًا على قوله :

ـ وأية كارثة ! إنها مصيبة !

وصمتُ لحظة ، قبل أن أضيف :

ـ ولكننا كنا نتوقَّعها .

شحب وجه المدير ، وهو يقول :

ـ هذا صحيح .. منذ بدأت تلك الاضطرابات ، عام ألفين وخمسة ، وعديد من رجال الشرطة ينضمون للمتمردين .. يبدو أن الأمر يفلت من بين أصابعنا يا معاون المباحث .

قلت فى حزم :

ـ ليس بعد .

وقبل أن ينطق حرفًا آخر ، سألته فى سرعة :

ـ وهل أخبرنا ذلك المجهول ، متى ستنفجر تلك القنبلة ؟!

قلب المدير كفيه فى يأس ومرارة ، مغمغمًا :

ـ مطلقًا .

تراجعت بحركة حادة ، هاتفًا :

ـ ماذا ننتظر إذن ؟!

أجاب فى توتر :

ـ إننا نقوم بتفتيش المكان كله ، و ...

صحت فى حدة :

ـ وماذا يا سيادة المدير ؟! إننا لانعلم متى ستنفجر تلك القنبلة .. وربما تنفجر الآن .

امتقع وجهه أكثر ، وهو يسألنى :

ـ ماذا تقترح يا معاون المباحث ؟!

هتفت به فى صرامة آمرة ، على الرغم من فارق الرتب الكبير بيننا :

ـ لابد من إخلاء مبنى المديرية فورًا .

هتف مذعورًا :

ـ ولكن هذا مستحيل ! إنه يحتاج إلى قرار وزير .

التقطت سمّاعة الهاتف ، وأنا أقول فى حزم :

ـ الوزير سيقدّر حتمًا طبيعة وحساسية الموقف .

ورحت أطلب رقمًا خاصًا ، وأنا أضيف :

ـ وسأتحمل أنا المسئولية كاملة ، باعتبارى معاون المباحث .

سألنى فى توتر :

ـ ماذا ستفعل بالضبط ؟!

أجبته فى حزم :

ـ سأقوم باستدعاء قوات مكافحة الإرهاب ، وقسم التعامل مع المتفجرات ، بينما تأمر أنت الجميع بمغادرة المبنى فورًا .

كانت خطتى متقنة تمامًا ، فلقد ألقى مدير الأمن أوامره ، عبر مكبرات الصوت ، فى المبنى كله ، ولم تمض دقائق ، حتى وصلت سيارة مكافحة المتفجرات ، وهبط منها فريق من الرجال ، بملابسهم السوداء وخوذاتهم القاتمة ، واندفعوا ينتشرون فى المبنى ويسيطرون عليه ..

ولم تمض دقائق أخرى ، حتى وصلت سيارة نصف نقل مغلقة ، إلى الباب الخلفى لمبنى المديرية ، وراح بعض الرجال ينقلون إليها كل ما يحويه المبنى من أسلحة وذخائر ..

أما أنا ، فقد عدت إلى مكتبى ، ورحت أدخن سيجارتى فى هدوء ، حتى لمحت من النافذة تلك السيارة نصف النقل تبتعد ، فابتسمت فى استرخاء وتكاسل ، وانتظرت حتى انطلق أزيز جهاز الاتصال اللاسلكى ، فالتقطته ، قائلاً :

ـ كيف الحال ؟!

أتانى صوت صارم حازم ، يجيب :

ـ كل شىء تم وفقًا للخطة .

غمغمت :

ـ عظيم .

وبنفس الهدوء ، نهضت أرتدى زيًا مماثلاً لزى رجال مكافحة المتفجرات ، وخوذة داكنة تخفى ملامحى ، ثم

اتحنيت ألتقط القنبلة من أسفل مكتبى ، وأعدت ضبط توقيتها ، قبل أن أغادر المبنى كله ، فى سيارة مكافحة المتفجرات .

ومن حسن الحظ أن أحدًا لايحاول عد أفراد فرق الأمن ..

هذا ما جال بخاطرى ، ونحن نبتعد بالسيارة ، والانفجار ينسف مبنى مديرية الأمن نسفًا ، ويعلن انتصارًا جديدًا لنا ..

نحن المتمرين .

★ ★ ★

كوكتيل ٢٠٠٠
روايات مصرية للجيب

مذكرات طبيب

فى صعيد مصر الجوّانى

• الحلقة السادسة •

طباعة ونشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٦٨٣٠٠٠٤ - ٢٩٨٦١٩٧
فاكس ٦٨٢٧٠٠٢

مقـدِّمة

هذه الخواطر هى سيرة ذاتية ..

وعمل أدبى ..

جزء من هذا ، وشىء من ذاك ..

إنها ذكرياتٍ لفترة من فترات حياتى ، ربما كان لها الفضل ، بعد اللّه (سبحانه وتعالى) ، فيما أصبحت عليه الآن ..

فقد بدأت تلك الفترة طبيبًا عاديًا ، من مئات الأطباء ، الذين حصلوا على شهادتهم الجامعية ، وأنهوا فترة التدريب الإجبارى (الامتياز) ، ثم انتقلوا لقضاء فترة التكليف الإجبارية ..

وانتهت وأنا أضع قدمىّ على أوّل سلمة فى مشوار طويل ، كان ولايزال مصدر متعتى الوحيد ..

الأدب .. والقلم ..

والأوراق ..

ولقد تمنيت كثيرًا أن أكتب هذه الذكريات والمذكرات ..

وترددّت أكثر فى كتابتها ..

ربما لأننى خشيت ألا يتقبّل القارئ فكرة أن يضيع الكاتب (أى كاتب) بعض الأوراق ، فى الحديث عن نفسه ..

أو لأنه ليس من السهل أن يكتب المرء عن نفسه ..

وحياته ..

وذكرياته ..

ولكن شيئًا ما ، لست أدرى كنهه بالضبط ، جعلنى أحسم تردُّدى هذا .

شىء ما ، جعلنى أعجز عن مقاومة رغبتى فى كتابة هذه المذكرات ..

ربمّا لأنها أحداث مرّت عليها ثمان عشرة سنة أو أكثر ، وخشيت أن تذوب فى بحر الذاكرة ، فتفقدنى وأفقدها ..

أو ربما لأن المرء يحتاج أحيانًا إلى التحدُّث عن ذكرياته ..

ربما .

المهم أن هذه الأوراق بين يديكم الآن ..

اعتبروها مجرّد عمل أدبى ..

وهذا سيكفينى ..

تمامًا ..

د. نبيل فاروق

★ ★ ★

كولة أبو ليلة ..

بدأ الأمر كله بفضول (غلس) ..

أحاديث شتى عن البدو ، وعادتهم ، وطبائعهم الخاصة ، وأساليبهم المدهشة ، فى علاج عدد من الأمراض المزمنة والمستعصية ، أثارت اهتمامى وفضولى ، ودفعتنى إلى البحث عن وسيلة لزيارة البدو ، ومعايشتهم ، ورؤية عجائبهم بنفسى ..

فى تلك الفترة كانت صداقاتى قد اتسعت ، وامتدَّت من (أبو دياب شرق) إلى (أبو دياب غرب) ، تلك القرية الأكثر تحضرًا وحداثة ، بحكم وجودها على الطريق الأسفلتى مباشرة ، والتى يربطها طريق ترابى ضيق بالقرية التى أعمل بها ، بالإضافة إلى المزارع ، التى تتجاور بين القريتين ..

وفى (أبى دياب غرب) ، جمعتنى الصداقة بعدد من أفضل من عرفتهم فى حياتى كلها ..

(عبد العليم أبو زيد) .. و(كمال محروس) .. و(أبو الحسن) ، و(عفيفى) ، و(أحمد محمود حسين) ، وغيرهم ..

ولأن (عبد العليم) خريج علوم ومتفتح ، و(كمال) سائق لسيارة مينى باص ، فقد خرج الاثنان معى لزيارة البدو ، ولتفقُّد منطقة الجبال ، التى تحيط بى من كل جانب ..

فى البداية ، بهرتنى حياة البدو ، وأساليبهم ، وطرق علاجهم ، ورأيتهم يداوون مرض السكر بمسحوق الترمس والبواسير بلبن الصبَّار ، وآلام المعدة بزيت البيض ..

وكل ما ذكرته فى الأسطر السابقة حقيقى ، وشاهدته بأم رأسى ، حتى لقد تصوَّرت أن هؤلاء هم الذين دهنوا الهواء دوكو ، والذين خرموا القرش من ناحية واحدة ..

ومع انبهارى بذلك الطب البدائى ، وبعد أن تناولت ثلاثة ثعابين مشوية ، وعقربين مسلوقين ، وقليلاً من الظلوط المقلى بزيت البندريس ، بدأت أشعر بالإرهاق من حياة البدو ، وقرَّرت أن أكتفى بزيارة الجبل ..

وقبيل العصر ، حملتنا سيارة (كمال) إلى الجبال ..

وبالتحديد إلى تلك المنطقة الشهيرة ، المعروفة هناك باسم (كولة أبو ليلة) ..

ومصطلح (كولة) هذا أدهشنى فى البداية ، ثم لم ألبث أن

أدركت أنه المصطلح الدارج لكلمة مرتفع ، أو جبل متوسط ، أو بمعنى أدق ، منطقة تتناثر فيها الجبال ، حول واد محدود ..

هذا باختصار مُخِلّ ، معنى كلمة (كولة) ..

وفى طريقنا إلى هذه (الكولة) ، راح (عبد العليم) يروى لى بعض الحكايات الشائعة حولها ، ومنها أنها منطقة تحوى كنوز الدنيا كلها ، وأن الموعودين فقط من عثروا فيها على الذهب والموجوهرات والآثار ، و ... ، و ...

ومن كثرة حديثه وشدة حماسه ، خُيِّل إلىَّ أن كل كنوز الفراعنة قد تم العثور عليها فى هذه (الكولة) الأسطورية ، حتى قال (عبد العليم) فى حماس شديد ، أن (كولة أبو ليلة) هذه كانت تحوى الصخور السبع أيضًا ..

وهنا جذب الأمر انتباهى بالفعل ، وسألته عما يعنيه بهذه الصخور السبع ، فراح يروى لى قصة أشبه بالأساطير ، عن سبعة أحجار ضخمة ، فى ضخامة الهرم ، كانت موجوده قديمًا فى وادى (كولة أبو ليلة) هذه ، ثم اختفت ذات يوم ، ولم يعد لها أدنى أثر ..

ومع قصة كهذه ، كان من الطبيعى أن أضحك طويلاً

وكثيرًا ، وأن أسخر من القصة ، والفكرة كلها ، ولكن (عبد العليم) عاد يؤكد قصته بمنتهى الإصرار ، ويقول : إن ولده قد شاهد هذه الأحجار بنفسه ، و... ، و...

ولم أحاول معارضته مرة أخرى ، واكتفيت باستماع يفتقر إلى الحماس ، وسيارة (كمال) تنهب المنطقة ، فى طريقها إلى (الكولة) الأسطورية العجيبة ..

(كولة أبو ليلة) ..

وأخيرًا وصلت السيارة إلى (الكولة) ..

ولن يمكننى أبدًا أن أصف لكم مشاعرى ، وأنا أشاهد هذه المنطقة للمرة الأولى ..

لقد وجدت نفسى أمام دائرة من الجبال متوسطة الارتفاع ، تحيط بمنطقة منبسطة تمامًا ..

وكلمة منبسطة هذه ليست مجازية على الإطلاق ، فباستثناء بعض الحصى الصغير ، والأحجار المتناثرة هنا وهناك ، بفعل عوامل الطبيعة العشوائية ، كانت الأرض التى تحيط بها هذه الجبال عبارة عن مساحة منبسطة تمامًا ، على نحو يستحيل وجوده فى الطبيعة ، مما يوحى إليك بأنه قد جرى تمهيدها ذات يوم ، وإعدادها لأمر ما ..

وعندما صعدنا إلى أحد هذه الجبال ، رأيت بقايا آثار سبعة أجسام ضخمة واضحة ، وسط تلك المساحة المنبسطة ..

ومع عقلية كعقليتى ، وقراءات علمية كثيرة يزخر بها عقلى ، كان من الطبيعى أن يخلب الموقف كله لبى ، على نحو فائق ..

وطوال فترة وجودنا فى (كولة أبو ليلة) ، رحت أفحص كل ما تقع عليه يداى ، وكأنما أتوقَّع أن أجد صامولة من سفينة فضاء ، أو فردة حذاء قديمة لمخلوق مريخى ، عاد إلى كوكبه حافيًا ..

وعندما اقترب غروب الشمس ، كان من الطبيعى أن نعود إلى الوحدة الصحية فى (أبو دياب شرق) ، بعد أن أصبحت أنا من مجاذيب (كولة أبو ليلة) ..

وفى المساء ، وبعد عشاء طبيعى ، مكوَّن من الويكة والملوخية ، مع كوب من عصير الويكة المثلَّج بماء الطلمبة ، جاء الشيخ (إبراهيم) ليقضى أمسيته بصحبتى كالمعتاد ..

وبعد أحاديث ثقافية ممتعة ، حول البروفيسير (هريدى) صاحب نظرية (اللبدَ فى الذرة) ، والفيلسوف الشهير (صميده) ، الذى أثبت أن المخ مجرَّد عضو إضافى بلافائدة محدَّدة ، تمامًا مثل الزائدة الدودية ، سألت الشيخ (إبراهيم) عن الأحجار السبعة ، فى (كولة أبو ليلة) ..

وبهدوئه المعهود ، ورصانته التقليدية ، أخبرنى الشيخ (إبراهيم) أن القصة حقيقية تمامًا ، وأنه رأى تلك الأحجار السبعة الضخمة فى صباه ، وأن الواحد منها كان من الضخامة ، بحيث يختفى الجمل المحمَّل بالتبن ، عندما يسير خلفه ، ولكنه لايدرى أين ذهبت تلك الأحجار ، ولاما مصيرها ..

وعندما يسمع شخص قضى نصف عمره فى قراءة ودراسة الظواهر الغامضة حديثًا كهذا ، فى مكان مهمل ، مثل (أبو دياب شرق) ، فلابد أن يشتعل فضوله على نحو طبيعى ..

وهذا ما أصابنى بالتأكيد ..

ولقد طفت (أبو دياب شرق) كلها ، لأسأل كل الكبار عن (كولة أبو ليلة) وأحجارها الضخمة السبعة ، التى اختفت فى غفلة من الزمن ، دون أن تترك خلفها أدنى أثر ..

والعجيب أن الكل راح يردّد قصة واحدة لا تتغيَّر ، وهى تؤكد أن الاحجار الضخمة السبعة كانت هناك ، ثم لم يعد لها وجود ..

ونظرًا للحجم التقديرى ، الذى وصف به الكل هذه الأحجار ، أصبح اختفاؤها أمرًا مثيرًا وعجيبًا للغاية ..

ثم فجأة ، ظهرت تلك القصة الجديدة ..

كنت أتحدَّث عن الأحجار السبعة ، و(كولة أبو ليلة) ، عندما بدأ الحاج (حفنى) يروى بغتة قصة أكثر عجبًا ..

والحاج (حفنى) هذا ، لمن لايعرفه ، أكبر معمر عرفته فى حياتى كلها ، فقد توفى فى أثناء عملى فى (أبو دياب شرق) ، عن مائة وخمسة وأربعين عامًا ، ولقد كتبتها بالحروف ، حتى لايحدث أى خطأ مطبعى ، ولقد ظَل طيلة عمره بدائيًا صارمًا ، لاوقت لديه للهزل أو الدعابة ، ولايستمع إلى الراديو ، أو يشاهد التليفزيون ، أو حتى يغادر القرية ، حيث مسكنه وأرضه ..

ولهذا كان ما رواه الحاج (حفنى) مدهشًا بحق ..

لقد تحدَّث عن طائرة من طراز ما ، وصفه بأنه هليكوبتر على الأرجح ، ولكن هذا كان فى أثناء الحرب العالمية الثانية (مما ينفى كونه طائرة هليكوبتر) ..

المهم أن تلك الطائرة ، غير المحدَّدة الهوية ، قد هبطت فى تلك الفترة ، عند منطقة (كولة أبو ليلة) ، وخرج منها رجل وامرأة ، يرتديان زيًا فضيًا لامعًا ، مما أثار ذعر إخواننا الصعايدة ، وعلى رأسهم الحاج (حفنى) ، فهجموا على الرجل

والمرأة ، وقدموا لهما تحية معتبرة ، بكل شومة يحملونها ، حتى قضوا عليهما تمامًا ، وبعدها حطموا الطائرة ، واحتفظ كل منهم بجزء منها ..

وبمنتهى الوقار والكبرياء ، كدت أقبّل قدمى الحاج (حفنى) ويديه ، ليرينى فقط ذلك الجزء ، الذى احتفظ به ، من الطائرة إياها ..

ولأن الرجل طيب القلب ، فقد وافق بعد ثلاثة أيام ، وبعد أن خمن أننى قد بلغت الدرك الأسفل من الإذلال ، على أن يرينى تلك القطعة ، وغاب يومًا رابعًا ، ثم أتى ليرينى قطعة من القماش المهترئ ، من الواضح أنها كانت مدفونه فى مكان ما ، وفتحها ليخرج منها قطعة من معدن لامع ، حوالى عشرين سنتيمترًا فى ثلاثين سنتيمترًا ، مازالت تلمع وكأنها جديدة ، وعليها جزء من نقش لم يمكنى تمييزه أبدًا ..

ولكن المدهش أنها ، وعلى الرغم من حجمها هذا ، كانت خفيفة الوزن إلى حد عجيب ..

وفى هذه المرة لم يفلح تقبيل الأيدى والأقدام أو حتى الـ (.....) ، فقد رفض الحاج (حفنى) تمامًا أن يترك لى قطعة المعدن هذه ، وكأنها ميراث يحمل اعتبار وكرامة الصعيد كله ، ولكنه وعدنى بإحضارها مرة أخرى ، عندما يأتى صديقى الدكتور (محمد حجازى) لزيارتى ..

وبعد عدة أشهر ، حضر الدكتور (حجازى) ..

ولكن الحاج (حفنى) لم يحضر قطعة المعدن كما وعد ..

ثم منعه بعدها أمر مهم جدًا من الحضور ..

لقد مات ..

ومن المؤكّد أن هذا قد حرم صديقى الدكتور (محمد حجازى) ، والأكثر اهتمامًا منى بمثل هذه الأمور ، من رؤية تلك القطعة المعدنية ، التى كنت ، ومازلت ، وسأظلّ أصرّ على أنها جزء من سفينة فضاء من عالم آخر ، حتى ولو سخرت الدنيا كلها من تصوّرى هذا ..

فمن رأى ليس كمن سمع ..

أو قرأ ..

ولكن القدر لم يحرم الدكتور (حجازى) من مشاهدة وسماع فصل آخر من القصة .. فصل جاء بالمصادفة البحتة ..

فبينما نجلس معًا ، فى ساحة الوحدة الصحية ، جاء الخفير المسن عم (حارس) ، ليجلس على الأرض إلى جوارنا ..

و(حارس) هذا رجل ضئيل الجسد، نحيل، أشيب الشعر، ضخم الشارب، على نحو يجعله أشبه بممثل هزلى، فى أحد الأفلام المضحكة، ولكنه فى الوقت ذاته طيب القلب للغاية، وبسيط جدًا، شأن أى شخص لم يغادر القرية التى نشأ فيها قط..

ولأننا كنا نتحدّث عن (كولة أبو ليلة) فقد اكتفى بمتابعة حديثنا فى صمت، حتى سأله الدكتور (حجازى) عما إذا كان يعرف قصة تلك الأحجار السبعة..

وهنا جعل عم (حارس) شعر رأسينا يقف رهبة..

فببساطة مدهشة، وتلقائية بلاحدود، روى لنا عم (حارس) أنه قد رأى تلك الأحجار السبعة فى طفولته، واعتاد اللهو عندها، بحكم أن أرضهم تجاور موقعها، ولكن فى ذات ليلة، خرج والده ليروى أرضهم على ضوء القمر، ثم عاد إلى المنزل مذعورًا، يرتجف على نحو عجيب، ثم روى لهم أنه، بينما كان يروى أرضه، فوجئ بحجر ضخم لامع يهبط من السماء، ثم يخرج منه رجل فى زى فضى، وعلى رأسه كرة من الزجاج الداكن، وأن هذا الرجل، أو هذا الجنى، كما وصفه (حارس)، نقلاً عن والده، ألصق

بعض الأجسام المستديرة بتلك الأحجار السبعة الضخمة، فارتفعت كلها إلى السماء، واختفت وسط الظلام، قبل أن يعود هو إلى مركبته، وينطلق بها..

وفى الصباح، ذهب (حارس) وأشقاؤه، مع عدد من أهل القرية، للتيقن مما رواه والده، فلم يجدوا أثرًا لتلك الأحجار السبعة!!

هكذا، وبكل بساطة، ومن بين شفتى شخص لايعلم بعد أنهم قد اخترعوا الفيديو والتليفزيون، وصف عم (حارس)، عن لسان والده، سفينة فضاء، ورائد فضاء بزيه اللامع، وخوذة التنفس على رأسه؟

ولم يكن الأمر يحتمل تفسيرًا آخر..

فمن المستحيل أن يصف شخصٌ مثله هذه الأمور، مالم يكن قد سمعها عن لسان والده، الذى وصف مارآه بالفعل..

والعجيب أننى عندما بدأت فى الاستفسار من كبار القرية والمسنين، عن القصة التى رواها حارس، أكد الكل صحة ماقاله والده فى الخمسينيات، ولكنهم قالوا: إنه مخرّف حتمًا، أو ملموس من الجن، وإن أجمعوا فى تناقض عجيب، على أن الأحجار السبعة قد اختفت بالفعل، فى اليوم التالى لروايته..

ولقد أرسلت أيامها رسالة بكل هذا للأستاذ (أنيس منصور)، متصورًا أن ما حدث سيثير اهتمامه ولكننى لم أتلق جوابًا عنها أبدًا ..

وعندما أعياني البحث، وأعيتنى الحيلة، توقفت عن ملاحقة قصة (كولة أبو ليلة)، على الرغم من التساؤلات العديدة، التى طرحتها فى نفسى، والتى لم أجد لها جوابًا شافيًا، حتى لحظة كتابة هذه السطور ..

فما طبيعة تلك الأحجار السبعة ؟!

وما أهميتها ؟!

وما صحة كل ما سمعته فى (أبو دياب شرق) عنها ؟!

ثم، وهذا ما يستفزنى حتى هذه اللحظة، لماذا نعتبر (فى مصر بالذات) أن الحديث عن هذه الأمور نوع من التخريف، دون أن نبذل أدنى جهد للبحث عنه ودراسته ؟!

لست أدرى !!

ولست أظننى سأدرى أبدًا !!

ربما لأننى يئست من تتبُّع الأمر كله، بعد موت الحاج (حفنى)، مأسوفًا على شبابه الغض ..

أو ربما لأن قصة عجيبة أخرى قد شغلت انتباهى ..

قصة عجل (البوهى) ..

ولهذا حديث آخر ..

* * *

تابع فى الكتاب القادم

بالمصادفة ..

(قصة قصيرة)

يالـه من يوم سعيد !

هكذا قال (أنور) لنفسه ، وهو يعقد رباط عنقه زاهى الألوان فى الصباح ، أمام تلك المرآة الكبيرة فى حجرة نومه ، ويطلق من بين شفتيه لحنًا مرحًا ، يميز فترة ستينات القرن العشرين ..

كان شديد الاهتمام بمظهره وأناقته هذا الصباح ؛ لأنه سيلتقى اليوم بالمرأه التى وقع فى غرامها ، منذ نصف العام ، أو أقل قليلاً ..

سكرتيرته (هند) ..

صحيح أنه متزوّج منذ خمس سنوات ، وحياته مع زوجته هادئة مستقرة ، على الرغم من أنهما لم ينجبا قط ، إلا أنه ، ومنذ أوّل يوم رأى فيه (هند) ، عندما التحقت بالعمل فى الشركة ، وقع فى غرامها فورًا ..

كانت من ذلك الطراز المبهر من النساء ..

أنيقة ، جميلة ، واثقة ، ذات شخصية جذّابة آسرة ..

عيناها كانتا من ذلك النوع ، الذى ما إن تتطلّع إليه ، حتى تغوص فيه ، وتغرق فى أعماقه حتى النخاع ..

ولقد تطلّع إلى عينيها ، فى أوّل يوم دلفت فيه إلى مكتبه ..

ووقع فى أسرهما ..

وهو واثق من أنها قد أدركت هذا ، منذ اللحظة الأولى ، ورأى بنفسه تلك الابتسامة الخبيثة الواثقة ، على طرف شفتيها الجميلتين ..

ولكن هذا لم يفتّ فى عضده ..

لقد قرّر أن يبذل كل جهد ممكن لينالها ..

مهما كان الثمن ..

وكرجل ، بدا له أن أقصر طريق إلى هذا هو أن يغمرها باهتمامه ، وكرمه ، وهداياه ، فى كل مناسبة ممكنة ..

ومن ملفها بالشركة ، عرف تاريخ مولدها ، وعنوانها ، ورقم هاتفها ، و ...

« إلى أين ؟! » ..

ألقت زوجتـه السؤال فى اهتمـام ، فانتزعتـه بعنف مـن أفكاره ، وجعلت جسده كله يرتجف ارتجافة سريعة ، قبل أن يلتفت إليها ، قائلاً فى سرعة وتوتر :

ـ ألم أخبرك أمس ؟!

دسّت كفيها فى جيبى معطفها المنزلى ، وهى تتطلّع إليـه ، قائلة :

ـ آه .. اجتماع فرع الشركة فى (أسوان) .

ربّت على رباط عنقه ، والتقط سترته ، وهو يقول :

ـ إنه اجتماع مهم جدًا ، وسيتحدّد فيـه مصير الشركة هناك ، وحضورى أمر لابديل عنه .

أومأت برأسها متفهمة ، ومغمغمة :

ـ لقد أخبرتنى هذا بالفعل .

تصوّر أنها ستكتفى بهذا القول ، ولكنها استدركت فى سرعة :

ـ هل ستسافرون بالقطار أم بالطائرة ؟!

أجابها فى سرعة أيضًا :

ـ بالطائرة .. نائب مدير الشركة ينتظرنى بتذكرتها فى المطار .

غمغمت :

ـ نظام جيد .

غمغم بدوره :

ـ بالتأكيد .

ألقى نظرة حذرة عليها فى المرآة ، وأدرك من ابتسامتها أنها لاتشك فيما قاله ، وعلى الرغم من هذا فقد لمح فى ابتسامتها نفسها شيئًا لم يرتح إليه ..

على الإطلاق ..

ولكن لاينبغى أن يقلقه هذا ..

لقد أعدَّ لكل شىء عدته بمنتهى الدقة ..

حتى رفاقه فى العمل يتصوَّرون أنـه سيسـافر بالطـائرة إلى (أسوان) بالفعل ..

(هند) وحدها تعلم أنـه سيسـافر ليقضـى يومـه هنـاك ، فى (الإسكندرية) ..

هذا لأنها سترافقه فى رحلته هذه ..

إنها تنتظره فى النادى ، وسيلتقطها من هناك ، وتحملهما سيارة استأجرها سرًّا ، إلى (الإسكندرية) مباشرة ..

وبالتحديد إلى المنتزة ..

ومن المؤكَّد أنها ستكون رحلة من أجمل رحلات حياته كلها ..

يوم كامل ، بصحبة أجمل مخلوقة عرفها فى حياته ..

(هند) ..

وهو يعلم أنه بهذا يخون زوجته ..

يخونها مع سبق الإصرار والترصُّد ..

ولكن ماذا فى هذا ؟!

كل الرجال يفعلونها ..

كـل الرجـال يسـعون لإقـامة علاقات مع نسـاء أخريات ، بخلاف زوجاتهم ..

وهو واحد من هؤلاء الرجال ..

لهذا منحهم اللَّه ، من دون النساء ، حق الزواج بمثنى ، وثلاث ، ورباع .

وما ملكت أيمانهم أيضًا ..

هذا ما أقنع به نفسه ، وهو يودِّع زوجته ، وينطلق كالطير ، فى تلك السيارة المستأجرة ! ليلتقى بمحبوبته (هند) ..

ويا له من لقاء ..

كانت كالبدر فى تمامه ، وهى تجلس إلى جواره ، وتمنحه واحدة من ابتساماتها المتألِّقة الساحرة ، قبل أن ينطلق بها ، فى طريقهما إلى (المنتزه) فى (الإسكندرية) ..

وطوال الطريق ، تعانقت أصابع كفيهمـا ، وهـى تتحدَّث بحماسة طوال الوقت ..

كان طموحها ضخمًا ، إلى حد مدهش ..

ولقد قرَّر أن يبيع قطعة الأرض ، التى ورثها عن والده فى (المنيـا) ، ليحقّق لها كل طموحاتها ، ويربح قلبها الدافئ ، وجمالها الفتان .

سيبتاع لها شقة المهندسين ، التى تحلم بها ، وتلك السيارة الفاخرة ، والحلى ، وشاليه الساحل الشمالى ، و ... ، و ...

ولكن هل ستكفى أرضه ، لشراء كل هذا ؟!

كان الخاطر يزعجه ، لذا فقد ألقاه خلف ظهره ، وحاول أن ينساه ، وهو يسبح فى بحر الغرام ، وأصابعه تعانق كفها فى حب ولهفة ..

ومع مدخل (الإسكندرية) ، اكتسب الهواء رائحة لطيفة محبَّبة ..

رائحة اليود ، والملح ..

والحب ..

وفى ذهنه ، راح يضع سيناريو ذلك اليوم ، الذى حلم به طويلاً ..

سيزيل حاجز فارق العمر ، بين سنه وسنها ، وسيلهوان

ويمرحان معًا ، فى حدائق المنتزه ، ويتناولان طعامهما فى فندقها الشهير ..

ظل يرتب أحلامه وأمنياته ، حتى بلغا المنتزه بالفعل ..

وانطلق معها ، كما لم يفعل فى حياته كلها ..

لعبًا ، ولهوا ، وجريا ، وضحكا لساعات وساعات ..

ولم تكن (هند) أبدًا أجمل مما كانت عليه ، فى ذلك اليوم .

كانت ساحرة ..

إلى أقصى حد ..

وفى النهاية ، ومع منتصف النهار ، أطلقت ضحكة عابثة طويلة ، قبل أن تقول :

ـ إننى أموت جوعًا .

هتف فى حماسة :

ـ وأنا أيضًا .

اتجها بالسيارة المستأجرة إلى مطعم فاخر قريب ، وبينما هو يوقف السيارة أمامه ، أشارت هى فى عبث إلى رجل وامرأة ، يلهوان مثليهما ، بالقرب من المطعم ، وقالت فى خبث :

ـ يبدو أن الكل يشتعل حبًا هنا .

طبع قبلة على كفها ، وهو يغادر السيارة معها ، وتشابكت أصابعهما مرة أخرى ، وهما يتجهان إلى المطعم ، ولكن الرجل والمرأة اندفعا نحوهما ، وهما يطلقان ضحكات عابثة عالية ، ثم ارتطمت المرأة به فجأة ، و ...

وانتفض جسده كله فى عنف ، وهو يحدّق فى وجهها ، فى حين اتسعت عيناها هى عن آخرهما ، فى ذعر بلاحدود ، وانطلقت من حلقها شهقة رعب ذاهلة ، وهى تصرخ :

ـ أنت ؟!

وبكل ذهوله وذعره ، صرخ :

ـ (كوثر) ؟!

وعجزت ساقاه عن حمله من هول الماجأة ، فوجد نفسه يسقط عند قدمى (هند) وأقدام الرجل والمرأة العابثين ..

فقد كانت تلك المرأة هى آخر شخص يتوقّع رؤيته فى (الإسكندرية) .. كانت زوجته ، التى تتوقع وجوده هناك .. فى (أسوان) ..

★ ★ ★

١ ـ حادث عجيب ..

ارتفع صوت سارينة سيارة الإسعاف ، وهى تشق شوارع (القاهرة) المزدحمة فى صعوبة ، وراح الطبيب المصاحب لها يزفر فى توتر ، وهو يلوّح بيده ، قائلاً فى عصبية شديدة :

ـ أمر غير محتمل ! لابد أن يجدوا حلاً لهذه المشكلة السخيفة .. ليس من المنطقى أن تخرج سيارة إسعاف ، المفترض فيها أن تسعف مريضًا فى حالة حرجة عاجلة ، فتخوض كل هذا الزحام العشوائى ، قبل أن تصل إليه ! لماذا لايستخدمون الطائرات الهليكوبتر ، كما تفعل الدول المتحضرّة .

لوّح سائق سيارة الإسعاف بيده ، وهو يقول فى سخرية :

ـ ربما لأننا لسنا دولة متحضرّة .

التفت إليه الدكتور أشرف ، بحركة حادة ، وهو يقول :

ـ تبدو وكأن الأمر لايقلقك أبدًا .

هزّ السائق كتفيه فى لامبالاة ، قائلاً :

ـ ولماذا يقلقنى ؟!

قال (أشرف) فى حدة :

ـ لأن حياة إنسان تعتمد على وصولنا إليه بالسرعة المناسبة .

أجابه بلا مبالاة أكثر :

ـ وماذا بيدنا لنفعله ؟!

انعقد حاجبا (أشرف) فى عصبية متوترة ، وهو يقول :

ـ لست أدرى .

ثم استدرك فى صرامة :

ـ ولكن ينبغى أن نحاول .

توقّف السائق فى إشارة مزدحمة ، وعاد يطلق سارينة السيارة بأقصى قوتها ، دون أن يبالى به أحد ، فقال فى سخرية :

ـ مع هؤلاء ؟!

مطّ (أشرف) شفتيه ، وأشاح بوجهه فى تذمّر ، فابتسم السائق فى تعاطف ، قائلاً :

- الواقع أنك شخص مختلف عما ألفناه يادكتور (أشرف)، فأنت تولى كل أمر عناية فائقة .

غمغم (أشرف) :

- هـذا ما ينبغى أن يفعلـه كل إنسـان شريف ، يراعى ضميره ، ويراعى الله (سبحانه وتعالى) .

قال السائق فى احترام :

- بالتأكيد .. أنت على حق تمامًا ولكن يبدو أن الزمن والتطوّر قد أفسدا فطرة الناس ، فلم يعودوا كما كانوا .. هل تعلم أنك أوّل طبيب يرافق سيارة الإسعاف ، منذ زمن طويل ؟! إنهم يعتمدون على المسعفين فحسب .

اعتدل (أشرف) فى مجلسـه ، عندما بدأت السيارات تتحرّك ، وقال فى حزم :

- ما تعلمناه يقول : إن هذا خطأ .

هزّ السائق رأسه قائلاً فى استسلام :

- بالتأكيد .

توقّفت السيارات مرة أخرى ، قبل أن تتجاوز سيارة الإسعاف

الإشارة ، التى استعادت بسرعة ضوء مصباحها الأحمر ، فزفر (أشرف) بضجر وغضب ، وهو يسأل :

- موقع البناء الذى نقصـده خلف ذلك المبنى هناك .. أليس كذلك ؟!

أومأ السائق برأسه ، مغمغمًا :

- بلى .

لم يكد ينطقها ، حتى التقط الدكتـور (أشرف) حقيبتـه ، وقفز خارج السيارة ، قائلاً :

- عظيم .. الحق بى هناك إذن ، بعد أن تنفرج الأزمة .

هتف السائق فى دهشة :

- ولكن ..

ولم تكتمل كلمته ، مع اختفاء (أشرف) وسط الزحام ، فابتسم ، وهزّ رأسه ، متمتمًا :

- يالله من مقاتل :

أمـا (أشرف) ، فقد راح يسير بسرعة أشبه بالعدو ، حتى بلغ موقع البناء ، ولمح فريقًا من العاملين يلتفّ حول بقعة ما ، فاتجه نحوها مباشرة ، وهو يقول فى حزم :

ـ أفسحوا الطريق .. أنا الطبيب .. هيّا .

تراجع الرجال فى سرعة ، وأفسحوا له الطريق ، فاندفع بكل اهتمامه وحماسه ، نحو عامل ملقى أرضًا ، وجسده يرتعد وينتفض فى قوة ، على نحو عجيب ، وانحنى ليبدأ فحصه ، وهو يسأل :

ـ ماذا حدث بالضبط .

أتاه الجواب على لسان أحد مهندسى الموقع ، وهو يقول فى توتر شديد :

ـ لست أدرى .. لقد كان يعمل مع زملائه ، وكل شىء يسير على مايرام ، عندما سمعنا صوت شىء يشقّ الهواء ، ثم رأيناه يصرخ ، ثم يسقط أرضًا كالصخرة ، وهو يمسك عنقه .

انعقد حاجبا (أشرف) وهو يفحص العامل فى سرعة ، قائلاً :

ـ ما الذى تعنيه بصوت شىء يشقّ الهواء ؟!

تردَّد المهندس ، وبدا عليه مزيج من القلق والحرج ، فاندفع أحد العمال يجيب فى انفعال شديد :

ـ رصاصة .. لقد سمعنا صوت رصاصة .

التفت إليه الدكتور (أشرف) فى دهشة ، قائلاً :

ـ رصاصة ؟!

هزَّ المهندس رأسه فى قوة ، قبل أن يقول فى حدة :

ـ مجرَّد تخمين .. لا أحد يمكنه الجزم بشىء كهذا .

اندفع العامل نفسه ، يقول فى إصرار :

ـ إنها رصاصة .. لايمكن أن أخطئ تمييزها .. إننى أسمعها منذ طفولتى ، فى بلدتنا بالصعيد .

صاح به المهندس فى عصبية :

ـ إنا لم نسمع دويًّا ، ولم نر حتى وهجها .

قال العامل بعناد :

ـ ربما أطلقت من بعيد .

انعقد حاجبا (أشرف) ، وهو يفحص عنق العامل المصاب ، بكل دقة واهتمام ، وقال فى قلق :

ـ قلتم : إنه كان يمسك عنقه ، قبل أن يسقط .

هتف أحدهم :

عقب سماعنا صوت الرصاصة ، أمسك عنقه ، وأطلق صرخة ألم ، ثم سقط دفعة واحدة .

أخرج (أشرف) من حقيبته محقنًا ، وهو يقول :

ـ ثم راح ينتفض بهذه القوة .. أليس كذلك ؟!

هزَّ المهندس رأسه نفيًا وقال :

ـ كلاَ .. هذه الانتفاضة بدأت منذ ربع الساعة فحسب .

توقَّفت يد (أشرف) ، قبل أن يخرج المحقن من غلافه الواقى ، وقال فى دهشة :

ـ منذ ربع الساعة ؟!

كان الموقف كله يحيِّره تماما ، فقد راجع فى ذهنه كل الأعراض ، التى يمكن أن ترتبط بالإصابة بطلق نارى ، ولكنها لم تكن تنطبق أبدًا على الحالة التى أمامه ..

فباستثناء تلك الارتجافة العنيفة ، التى تشمل جسد العامل كله ، من قمة رأسه ، وحتى أخمص قدميه ، لم تكن هناك أية ظواهر أخرى واضحة ..

لاتغير فى ضغط الدم أو سرعة النبض ، ولا ارتفاع فى درجة الحرارة ، أو معدل التنفس ، أو إفرازات عرق زائدة ..

أخرج (أشرف) من حقيبته محقنًا ، وهو يقول :
ـ ثم راح ينتفض بهذه القوة .. أليس كذلك ؟!

بل ولا يوجد أى أثر للإصابة بطلق نارى أو سواه ..

على الأقل فى الأجزاء الواضحة من الجسد ..

وبالذات العنق ، الذى أمسك به الرجل قبل سقوطه ..

ولا توجد آثار دماء ، فى أى جزء من جسده ..

فقط تلك الانتفاضة العجيبة ، غير المفهومة ..

ومن بعيد ، سمع صوت سارينة سيارة الإسعاف ، التى وجدت أخيرًا طريقها إلى الموقع ..

وامتلأت نفسه بحيرة شديدة فلأوّل مرة فى حياته ، يعجز عن تشخيص حالة طارئة أمامه ..

ولأوّل مرة ، يجد نفسه عاجزًا عن اتخاذ القرار ..

حتى قرار العلاج الطارئ ..

فبالنسبة إليه ، كانت تلك الحالة التى أمامه ، أشبه باللغز ..

لغز غامض عجيب ..

للغاية ..

★ ★ ★

« إنها حالة تفاعل بيروجينى .. » .

نطق الدكتور (عبد الحميد) الكلمة فى شىء من الحذر ، بعد أن انتهى من فحص العامل ، فى مستشفى الطوارئ ، فهزّ الدكتور (أشرف) رأسه نفيًا فى قوة ، قائلاً :

ـ مستحيل ! حالات التفاعل البيروجينية تنشأ فى وجود أجسام غريبة فى مجرى الدم ، وفى هذه الحالة يحدث انخفاض ملحوظ فى ضغط الدم ، ويتسارع معدّل النبض ، وهذا غير موجود فى الحالة التى لدينا هنا .

مطّ الدكتور (عبد الحميد) شفتيه ، وقلب كفيه فى شىء من الحيرة ، وهو يقول :

ـ لا يوجد تفسير آخر .. لقد فحصنا المخ ، وقمنا بعمل رسم للعضلات ، وحقنا الرجل بجرعة مناسبة من عقار (الفاليوم) المهدّئ ، وكل هذا لم يسفر عن شىء .

تطلّع (أشرف) إلى العامل ، الذى مازال جسده ينتفض ، وتساءل فى قلق :

ـ ألا يحتمل أن يكون هذا مرضًا جديدًا ، لم نعهده من قبل ؟!

سأله الدكتور (عبد الحميد) :

ـ وماذا عن صوت الرصاصة ، الذى تحدثوا عنه ، قبل سقوط الرجل ؟!

تردَّد (أشرف) بضع لحظات ، قبل أن يجيب فى حذر :

ـ ربما هى مجرَّد مصادفة .

ابتسم الدكتور (عبد الحميد) وربَّت على كتفه ، قائلاً :

ـ تفسير مريح للأعصاب ، ولكنه ليس منطقيًا أبدًا .. حاول ألا تلجًا إلى ما ينهى المشكلة فى أعماقك ، إلا عندما تعجز كل السبل عن إنهائها فعليًا .

انعقد حاجبا (أشرف) ، وراح يهضم عبارة أستاذه فى ذهنه ، وشعر بشىء من الخجل من نفسه ، وهو يقول ، فى شىء من العصبية :

ـ ولكننى أعدت فحصه بمنتهى الدقة ، ولم أجد أثرًا لأية إصابة حديثة .

قال الدكتور (عبد الحميد) فى هدوء حازم :

ـ أعده مرة ثالثة .

ثم اعتدل ، مستطردًا :

ـ أما الآن ، فسنفترض أنها حالة تفاعل بيروجينى ، وسنحقن الرجل بعقار الكورتيزون مع جرعة من مضادات الحساسية ، وسنعتبر كل هذا اختبارًا علاجيًا .

غمغم (أشرف) :

ـ فليكن .

ترك طاقم التمريض ينفذ العلاج المنشود ، بعد انصراف الدكتور (عبد الحميد) ، وتراجع هو ليجلس على مقعد كبير ، فى آخر الحجرة ، وعقله يعيد دراسة الأمر كله مرة أخرى ..

لقد كان الدكتور (عبد الحميد) على حق ، عندما أشار إلى أنه قد حاول إراحة ذهنه ، بافتراض أن الرصاصة ، التى سمعها الجميع ، فى موقع البناء ، كانت مجرَّد مصادفة ..

فليكن .. سيعيد الافتراض بأنه هناك رصاصة بالفعل ..

أو شىء ما على الأقل ..

شىء اخترق الهواء بسرعة كبيرة ، أعطت انطباع الرصاصة ، قبل أن يرتطم بعنق العامل ليصيبه بكل هذا ..

ارتطم بعنقه ..

بعنقه ..

تردَّدت الكلمة فى ذهنه عدة مرات ، على نحو جعله يهبّ من مقعده ، ويندفع مغادرًا الحجرة ، وهو يهتف فى أعماقه ..

نعم .. عنقه ..

فقط عنقه ..

إنه ليس بحاجة لإعادة فحص جسده كله ..

فقط العنق ..

اقتحم حجرة مكتبه فى انفعال ، والتقط من درج مكتبه عدسة مكبِّرة ضخمة ، أسرع عائدًا بها إلى حجرة الطوارئ ، ثم جذب مقعدًا ، وجلس إلى جوار جسد العامل ، وراح يفحص جانبى عنقه بعدسته المكبِّرة ، وسط دهشة طاقم التمريض .

كان يفحص كل سنتيمتر فى عنق الرجل ، بمنتهى الدقة والعناية ، ولكن كل شىء بدا طبيعيًا ، و ...

مهلاً ... هناك شىء ما ، عند الجانب الأيسر من العنق ..

فوق الوريد العنقى تمامًا ..

نقطة صغيرة ..

صغيرة جدًا ..

تُرى هل ...

لم ينتظر حتى يكتمل تساؤله فى أعماقه ، وإنما هبَّ من مكانه ، وقال لطاقم التمريض ، بلهجة عصبية آمرة :

ـ أريد نقل هذا المريض إلى حجرة الميكروسكوب الجراحى فورًا .

هتفت الممرضة فى انزعاج :

ـ فورًا ؟!

أجابها فى صرامة ينقصها الصبر :

ـ نعم فورًا .. خذى عشرة سنتيمترات من دمه ، وأرسليها للمعمل ، وأخبريهم أننى أريد تحليلاً كاملاً شاملاً .. كل شىء بلا استثناء ، ثم انقلوه فورًا إلى حجرة الميكروسكوب الجراحى .. وأكرِّر .. فورًا .

اندفع بكل انفعاله وحماسه إلى حجرة الميكروسكوب الجراحى ، وقام باستدعاء الفنى الذى وصل بعد دقائق خمس ، وهو يقول فى انزعاج :

ـ ماذا حدث ؟! هل توجد عمليات جراحة ميكروسكوبية للطوارئ ؟!

أجابه (أشرف) فى صرامة :

ـ اصمت وقم بعملك فحسب يا رجل .

همهم الفنى بكلمات متبرّمة ، وهو يعدّ الميكروسكوب الجراحى للعمل ، فى نفس الوقت الذى وصلت فيه الممرضة ، مع عامل يدفع سرير المصاب ، فأشار إليها (أشرف) ، قائلاً بنفس الانفعال ، الذى يأبى أن يفارقه :

ـ ضعاه هنا .

لم يكن يطيق صبرًا على فحص عنق الرجل ، بعد أن عثر فيه على تلك النقطة الصغيرة جدًا ، والتى بدت تحت عدسات الميكروسكوب الجراحى أشبه بفجوة مستديرة فى جلد العنق ، تمتدّ إلى الوريد العنقى مباشرة ، لها أطراف محترقة إلى حد ما ، وقد تجمّد الدم فوقها مؤخرًا ..

إذن فهذا صحيح ..

لقد اخترق عنقه شىء ما ..

شىء صغير جدًا .

تقريبًا فى حجم جرثومة(*) ..

اعتدل فى مجلسه ، وراح قلبه يخفق فى قوة ، من فرط الانفعال ، بعد أن توصل إلى ما رآه بعينه ، تحت الميكروسكوب الجراحى ..

وبلا وعى ، وجد نفسه يهتف :

ـ الدكتور (عبد الحميد) .. أين الدكتور (عبد الحميد) ؟!

أجابته الممرضة فى حيرة :

ـ إنه يفحص مرضاه ، فى قسم الأمراض الباطنية .

هتف فى حماسة :

ـ لابد أن يرى هذا .. لابد أن يرى ما حدث .

صاحت الممرضة بدورها :

ـ رباه ! هذا صحيح .. لقد توقّف جسده عن الانتفاض .

ارتجّ جسده كله من المفاجأة ، وحدّق فى جسد العامل المصاب فى دهشة ..

(★) الجراثيم : كائنات حية دقيقة ، من الطبقة السفلى ، فى مملكتى الحيوان والنبات ، تسبّب أمراضًا نتيجة لتطفّلها ، كالبكتريا ، والفيروسات ، والفطر السقمى فى مملكة النبات ، وكالحيوانات الأوّلية (البروتوزوا) ، فى مملكة الحيوان ، ويدخل تحت الجراثيم أيضًا خلايا التناسل ، فى الذكر والأنثى ، وكذلك بذور النبات ، أو ما تحمله من أجنة ، كجرثومة القمح .

لقد توقّفت انتفاضة جسده بالفعل ..

كيف لم ينتبه إلى هذا ؟!

إنه لم يكن ليتمكّن تحت الميكروسكوب الجراحى ، لو أن جسده يواصل تلك الانتفاضة العنيفة ..

وهذا يعنى أن انتفاضته قد تلاشت منذ فترة ..

منذ بدأ الكورتيزون ومضادات الحساسية عملهما ..

تفاعلت كل المعلومات فى ذهنه ، وتصارعت ، والتهبت ، فهتف ، وهو يعدو لمغادرة المكان :

ـ سأحضر الدكتور (عبد الحميد) ليرى هذا .

انطلق يعدو عبر الممر الطويل ، الممتدّ من حجرة الميكروسكوب الجراحى ، وهو يحاول تقييم الموقف مرة أخرى ، على ضوء المعطيات الجديدة ، و ...

وفجأة ، اخترقت أذنه صرخة قوية مذعورة ..

صرخة حملت صوت الممرضة ، ثم أعقبتها صرخات متواصلة ، جعلته يستدير ، ويعدو عائدًا إلى حجرة الميكروسكوب الجراحى ، مع كومة ممن جذبتهم تلك الصرخة القوية ، حتى إنه اضطرّ لشق طريقه بينهم فى صرامة ، قبل أن يندفع داخل الحجرة ..

وانعقد حاجباه فى شدة ، وهو يحدّق فيما رآه هناك ..

لقد كانت الممرضة ملتصقة بالجدار ، تواصل صرخاتها المذعورة ، وإلى جوارها ذلك العامل الذى شاركها نقل المصاب ، فى حين كان فنى الميكروسكوب الجراحى ملقى أرضًا وقد أمسك عنقه ، واتسعت عيناه على نحو مذعور ..

وبكل انفعاله ، صاح (أشرف) فى الممرضة :

ـ ماذا حدث ؟! ماذا حدث ؟!

حدّقت فى وجهه لحظة بذعر ، فأمسك كتفيها ، ورجّها فى قوة ، وكأنما ينتزعها من غيبوبة عميقة ، وهو يصرخ فى وجهها مرة أخرى :

ـ أخبرينى ماذا حدث ؟!

انتفض جسدها فى عنف ، وصرخت :

ـ لست أدرى .. لقد سمعنا صوت رصاصة ، ثم رأيناه يصرخ فى ألم ويمسك عنقه ، ثم يسقط هكذا .

واتسعت عيناه عن آخرهما ، وهو يحدّق فيها ، ثم يستدير ليحدّق فى الفنى فى ذهول مذعور ..

رصاصة ..

وصرخة ..

وسقوط ..

ها هو ذا اللغز يعود من جديد ..

وأكثر عنفًا وغموضًا ..

بكثير .

* * *

٢ ـ اللغز ..

هزّ الدكتور (عبد الحميد) رأسه فى حيرة ، وهو يتطلّع إلى فنى المعمل ، الراقد على فراش الطوارئ ، وجسده ينتفض فى عنف ، وغمغم :

ـ عجبًا !

أشار إليه (أشرف) ، قائلاً فى انفعال :

ـ نفس ما حدث للعامل سابقًا .. صوت رصاصة يسمعه الكل ، ثم يمسك عنقه ، ويصرخ ألمًا ، ويسقط فاقد الوعى ، وبعد ربع الساعة أو يزيد ، تبدأ تلك الانتفاضة العجيبة ، التى تشمل جسده كله ، دون أن ينخفض ضغط دمه ، أو يعانى تغيرات فى النبض أو معدلات التنفس .. أمر يتعارض تمامًا مع كل القواعد الطبية المعروفة .

أجابه الدكتور (عبد الحميد) فى حزم :

ـ ولكنه يمثّل مجموعة جديدة من الأعراض ، لابد أن نعمل على تسجيلها وتقييمها ، باعتبارها إشارة إلى حالة جديدة ، لم تعرفها مراجع الطب من قبل .

سأله (أشرف) فى عصبية :

ـ وماذا عن صوت الرصاصة ؟!

هزَّ الرجل رأسه مرة أخرى ، مغمغمًا بنفس الحيرة :

ـ من يدرى ؟!

عضَّ (أشرف) شفتيه فى توتر ، وقال :

ـ على كل حال .. أقترح أن نسير على الوتيرة العلاجية نفسها ، مع هذه الحالة أيضًا .. سنحقنه بالكورتيزون ومضادات الحساسية ، ثم نفحص عنقه ، تحت الميكروسكوب الجراحى .. فربما ..

قاطعه الدكتور (عبد الحميد) فى حزم :

ـ كلاَّ .. سنحصل على عينة دمه أوَّلاً ، قبل أن نضيف إليه أية عقاقير طبية .

قال (أشرف) فى حماسة :

ـ بالمناسبة ! هل انتهى المعمل من إعداد تقرير فحص عينة دماء العامل ؟!

أشار الدكتور (عبد الحميد) بسبَّابته نفيًا ، وقال :

ـ ليس بعد .. لقد طلبت منهم فحصًا شاملاً تامًّا ، وهذا يستغرق بعض الوقت ، و ...

قاطعه وصول الممرضة ، فى تلك اللحظة ، وهى تقول فى انفعال :

ـ لقد استيقظ .

التفت إليها الاثنان فى آن واحد ، وسألها (أشرف) :

ـ ماذا تقولين ؟!

بدت شديدة الانفعال ، وهى تهتف :

ـ العامل المصاب .. لقد استعاد وعيه .. تمامًا .

لم تمض دقيقة واحدة ، على قولها هذا ، حتى كان الاثنان فى حجرة العامل ، الذى بدا شاحبًا مرهقًا ، وهو ينقل بصره بينهما ، متسائلاً فى قلق ، يحمل لمحة من الخوف والتوتر :

ـ إين أنا ؟! ماذا حدث لى ؟!

سأله الدكتور (عبد الحميد) فى اهتمام :

ـ ألا تذكر ما حدث ؟!

هزَّ الرجل رأسه نفيًا ، وأشار بيده فى ضعف ، مجيبًا :

ـ أذكر أننى سمعت صوتًا أشبه بالرصاصة ، ثم شعرت بألم شديد فى عنقى ، وبقلبى يخفق فى عنف ، وبعدها استعدت وعيى ، لأجد نفسى هنا ، و ...

توقّف فجأة ، واتسعت عيناه فى ألم ، وصرخ :

ـ لا .. ليس ثانية .

هتف به (أشرف) :

ـ ماذا حدث ؟!

أجابه الرجل ، فى ألم شديد :

ـ تلك التقلصات المؤلمة ، فى عضلات الساقين .. إنها تحدث كل عشر دقائق تقريبًا .

انعقد حاجبا الدكتور (عبد الحميد) ، و(أشرف) يفحص الرجل فى اهتمام ، قبل أن يقول الأخير :

ـ إنها حالة نقص بوتاسيوم على الأرجح .

سأل الدكتور (عبد الحميد) العامل :

ـ قل لى يا رجل .. هل تعانى ارتفاعًا فى ضغط الدم ؟!

هزّ الرجل رأسه نفيًا وهو يقول فى ألم :

ـ كلاّ .

سأله باهتمام أكثر :

ـ ألا تتناول مدرات البول لسبب أو آخر ؟

هتف الرجل بألم شديد :

ـ مطلقًا .. لست أتناول أية أدوية أو عقاقير طبية .

قال (أشرف) مكرّرًا فى حزم :

ـ إنها حالة نقص حاد فى البوتاسيوم ..

غمغم الدكتور (عبد الحميد) :

ـ بالتأكيد .

وصمت لحظة ، ثم أضاف فى حزم :

ـ ولكن من الواضح أنه لم يكن يعانى منها ، قبل أن يصيبه ما أصابه ، فى موقع العمل .

التقط التذكرة الطبية للعامل ، وخطّ عليها العلاج اللازم ، وطلب من الممرضة تنفيذه فورًا ، ثم أشار إلى (أشرف) ، قائلاً :

ـ هيّا .. أظن أنه من الضرورى أن نبدأ فى فحص فنى الميكروسكوب الجراحى .

سأله (أشرف) ، وهو يسير إلى جواره فى سرعة :

ـ ألديك تفسير محدود ؟!

مطّ الدكتور (عبد الحميد) رأسه نفيًا ، وقال :

ـ بل لدى مخاوف غير محدودة .

لم يحاول تفسير عبارته ..

ولم يحاول (أشرف) أن يسأله ..

لقد لاذ كلاهما بصمت عجيب ، وهما يحقنان الفنى بالعقاقير الطبية ، وينقلانه بمعاونة الممرضة إلى حجرة الميكروسكوب الجراحى ..

ومع تلاشى انتفاضته ، بدءا فى فحص عنقه ..

وبانفعال شديد ، هتف (أشرف) :

ـ انظر يا دكتور (عبد الحميد) .. هناك ، عند الوريد العنقى تمامًا ..

انظر .

انعقد حاجبا الدكتور (عبد الحميد) بشدة ، وهو يحدّق ، عبر عدسات الميكروسكوب الجراحى ، فى تلك الفجوة الصغيرة ، ذات الأطراف شبه المحترقة ، التى تغطيها دماء تجمدّت حديثًا ، ثم لم يلبث أن تراجع ، وبدا أشبه برجل يحمل هموم الدنيا كلها ، وهو مستغرق فى تفكير عميق ، قبل أن يقول فى حزم :

ـ (أشرف) .. أظننا نحتاج إلى مساعدة متخصّصة .

سأله (أشرف) فى قلق حائر :

ـ ماذا تعنى يا دكتور (عبد الحميد) ؟!

التقط الرجل من جيبه قلمًا وورقة ، وراح يخطّ رقم هاتف ، وهو يجيب :

ـ إننا نحتاج إلى شخص متخصّص فى علم الجراثيم .. ولست أجد فى ذهنى من هو أفضل من الدكتورة (زينب مختار) .. هاهوذا رقم هاتفها.. اتصل بها فورًا ، وأخبرها أننا بصدد كشف جرثومة من نوع جديد ، وستجدها هنا ، خلال أقلّ من ساعة واحدة .

ناوله رقم الهاتف ، فقال (أشرف) فى حماسة :

ـ سأتصل بها فورًا .

جلس على المكتب الصغير ، فى ركن الحجرة ، والتقط سمّاعة الهاتف ، وضغط أزرار الرقم ، و ...

وفجأة اخترق أذنيه صوت رصاصة ..

رصاصة عبرت هواء الحجرة ، دون دوى أو وهج ..

فقط صوت اختراقها للهواء ..

وبحركة آليـة مذعورة ، رفـع عينيـه إلـى حيث يجلـس الدكتور (عبد الحميد) ..

وانتفض جسده كله فى عنف ، وهـو يطلق شـهقة رعب قوية ..

فعلى عكس الحـالتين السـابقتين ، لـم يطلـق الدكتـور (عبد الحميد) صرخة واحدة ..

فقط أمسك عنقه فى ألم ، واتسـعت عينـاه عن آخرهمـا فى ذعر ..

ثم سقط فاقد الوعى ، ليعلن مولد ضحية جديدة ..

ضحية للجرثومة ..

الغامضة ..

★ ★ ★

لم تكـد الدكتـورة (زينـب مختـار) توقـف سيارتها ، فـى ساحة المستشفى ، بعد سبع وثلاثين دقيقـة بالتحـديد ، من مكالمـة (أشرف) ، حتـى هرع إليهـا هذا الأخير ، بوجـه شاحب ممتقع ، وهو يقول :

ـ أسرعى يا دكتورة (زينب) .. أسرعى باللّه عليك .

أجابتـه فى هدوء عجيب لايتنـاسب مـع لهفتهـا لمعرفـة ما يحدث :

ـ إننى أسرع بالفعل ، منـذ تلقيت مكالمتك .. أخـبرنى .. كيف حال الدكتور (عبد الحميد) الآن ؟!

أجابها ، وهو يسرع إلى جوارها ، إلى قسم الطوارئ :

ـ نفس الأعراض ، التى ذكرتها لك هاتفيًا .. فقدان الوعى ، ثم ظهور تلك الانتفاضة العجيبة .

سألته :

ـ وماذا عن فنى الميكروسكوب الجراحى ؟!

أجابها بحيرة يائسة :

ـ استعاد وعيـه ، بعد عشرين دقيقـة تقريبًا ، من سقوط

الدكتور (عبد الحميد)، وهو يعانى أيضًا نقصًا حادًا، فى نسبة البوتاسيوم فى الدم.

غمغمت، وهى تحث الخطى أكثر:

ـ عجبًا!

وانعقد حاجباها بضع لحظات، فى تفكير عميق، قبل أن تقول فى حزم:

ـ وماذا عن تحاليل الدم للحالتين السابقتين ؟!

كانا قد بلغا حجرة الدكتور (عبد الحميد)، عندما أجابها:

ـ بالنسبة للعامل كان كل شىء طبيعيًا، باستثناء وجود نسبة عجيبة من الأوزون فى الدم، ونقص حاد فى نسبة البوتاسيوم، أما بالنسبة للفنى، فقد كانت هناك نسبة أقلّ من الأوزون، مع نقص محدود فى نسبة البوتاسيوم، وهذا فى العينة التى أخذت منه، قبل حقنه بالكورتيزون ومضادات الحساسية، أما العينة التى تلت استعادته لوعيه، فلم يتم إعداد التقرير الخاص بها بعد.

توقّفت تلقى نظرة على جسد الدكتور (عبد الحميد)، الذى ينتفض فى قوة، قبل أن تردّد، وكأنها تتحدّث إلى نفسها:

وانعقد حاجباها بضع لحظات، فى تفكير عميق، قبل أن تقول فى حزم:
ـ وماذا عن تحاليل الدم للحالتين السابقتين ؟!

نسبة غير منطقيـة مـن الأوزون ، ونقـص حـاد فـى البوتاسيوم !!

ـ .. تُرى ما الذى يمكن أن يعنيه هذا ؟!

أدرك (أشرف) أنها توجّه السؤال لنفسها ، لذا فلـم يحاول إجابته ، وتركها تستغرق فى التفكير وحدها طويلاً ، قبل أن تقول فى حزم :

ـ هل حصلتم على عينة من دمه لفحصها ؟!

أجابها فى سرعة :

ـ بالتأكيد .

قالت بحزم أكبر :

ـ عظيم .. أريد منكم أن تعطوه العقاقير الطبية نفسـها ، ولكن ليس الآن .

سألها فى حيرة :

ـ لمـاذا ؟!

أجابته فى حزم شديد :

ـ لابد من اتخاذ بعض الإجراءات أوّلاً .

ثم التفتت إليه ، تسأله :

ـ أين حجرة مدير المستشفى ؟!

كان من الواضح أنها تمتلك شخصية قويـة مسيطرة ، وأنها تعرف ما تريده بالضبط ، لذا فقد أجابها (أشرف) فى سرعة :

ـ فى الطابق الثانى ، ولكنك لـن تجديـه الآن ، فالسـاعة تقترب من الحادية عشرة ، وهو ينصرف فى الثامنة .

أجابته فى حزم :

ـ أرسل فى استدعائه .. أيقظه من نومه لو اقتضى الأمـر .. المهم أن يأتى إلى هنا فورًا .. أخبره أننا نتحدّث عن كارثة طبية محتملة ، والأمر لايحتمل أى تأخير .

لم يدر (أشرف) سر قوة هذه الطبيبة الخبيرة ، إلا أنه لم يكد يبلغ مدير المستشفى هاتفيًا ما قالته ، ويخبره اسـمها ، حتى وجده يهرع إلى المستشفى لمقابلتها ، ويصافحها فـى احترام بالغ ، وهو يقول فى توتر شديد :

ـ الدكتور (أشرف) ذكر لفظ (الكارثة الطبية) .. هـل لى أن أعلم ما الذى يعنيه هذا ؟!

أجابته بلهجتها الواثقة الحازمة :

ـ يعنى أننا نواجه شيئًا جديدًا غامضًا .. جرثومة على الأرجح ، لها صفات لم نعهدها من قبل ، ونتائج انتشارها لايعلمها ، حتى الآن ، سوى اللّه (سبحانه وتعالى) ، ولابد من اتخاذ كل الاحتياطات اللازمة ، وبمنتهى السرعة .

جف لعاب المدير ، لما سمعه منها ، فقال بارتباك شديد :

ـ وما المطلوب منى بالضبط ؟!

أجابته فى سرعة ، تشفّ عن تحديد موقفها المسبق :

ـ أريد حجرة معزولة تمامًا ، ومعملاً متأهّبًا طوال الأربع والعشرين ساعة ، للقيام بكل ما يُطلب منه ، وأريد أيضًا بعض حيوانات التجارب ، وبعض المرشحات البكتيرية .

ازدرد الرجل لعابه فى صعوبة ، وهو يقول :

ـ هذا يحتاج إلى موافقات عليا ، و ...

قاطعته فى صرامة شديدة :

ـ فليكن .. اطلب موافقة وزير الصحة ، أو حتى رئيس الوزراء شخصيًا .. أخبرهما أن الأمر يتعلّق بالأمن القومى .

شهق الرجل ، وهو يكرّر مذعورًا :

ـ الأمن القومى ؟!

أجابته بصرامة أكثر :

ـ بالتأكيد .. من أدرانا أنها ليست وسيلة جديدة ، من وسائل الحرب البيولوجية ، يحاول العدو اختبار تأثيرها علينا ؟!

امتقع وجه مدير المستشفى بشدة ، وهو يقول فى اضطراب :

ـ سأتخذ كل الإجراءات اللازمة .

قالت فى حزم واثق :

ـ بالتأكيد .

ثم اتجهت إلى حجرة الدكتور (عبد الحميد) ، فى خطوات واثقة قوية ، تاركة (أشرف) خلفها مبهورًا ..

وبشدة ..

ولكن من المؤكّد أن انبهاره هذا قد بلغ عشرات أضعاف ماكان عليه ، مع ما حدث خلال الساعة التالية ..

فإبلاغ المسئولين أتى ثماره ، على نحو لم يتصوّره قط ، أو حتى يتخيّل حدوثه ..

ولأن الدكتورة (زينب) قد رفضت تمامًا فكرة نقل الدكتور (عبد الحميد) إلى أى مكان آخر، وأعلنت عدم مسئوليتها عما يمكن أن يؤدى إليه هذا، فقد حضر فريق طبى فنى خاص، لتحويل إحدى حجرات المستشفى إلى منطقة معزولة تمامًا، عن طريق إحاطتها داخليًا بخيمة خاصة معقمة من البلاستيك، لها جانب شفاف تمامًا للمراقبة والمتابعة، وتم وضع الدكتور (عبد الحميد) داخلها، وجسده ما زال ينتفض فى عنف، وبعد توصيل جسده بكل أجهزة الفحص والمراقبة، سمحت الدكتورة (زينب) بحقنه بالكورتيزون، ومضادات الحساسية، ثم طلبت من الكل مغادرة الحجرة تمامًا، فسألها (أشرف) فى دهشة :

ـ ألن نفحص عنقه ؟!

أجابته فى حزم :

ليس الآن .

سألها فى عصبية :

ـ متى إذن ؟!

انعقد حاجباها فى صرامة، وهى تقول :

ـ اصمت، وانتظر .

لاذ الجميع بالصمت، وهم يراقبون الدكتور (عبد الحميد)، من خلال الجدار الشفاف للخيمة الواقية، ويتابعون أجهزة الفحص، وإشاراتها، ومؤشراتها، التى أوحت كلها بوجود اضطرابات عنيفة فى أداء العضلات ..

ولما طال الصمت، برز صوت قوى صارم، يسأل :

ـ ما الذى ننتظره بالضبط ؟!

لم تجب الدكتورة سؤاله، فأضاف فى حدة :

ـ أريد جوابًا صريحًا .

التفت إليه، تسأله فى صرامة :

ـ ومن أنت بالضبط ؟!

وضع بطاقة خاصة أمام وجهها، وهو يجيب بصرامة أكثر :

ـ العميد (مجدى) .. من الأمن القومى .

هتفت مستنكرة :

ـ وما شأن الأمن القومى بهذا ؟!

أجابها فى غلظة :

ـ أنت جعلت له الشأن الأكبر ، عندما افترضت أنه من المحتمل أن تنتمى تلك الجرثومة الغامضة ، التى تسعين لكشفها ، إلى حرب بيولوجية محتملة ..

انعقد حاجباها فى توتر ، وانفرجت شفتاها فى عصبية ، على نحو يوحى بأنها ستنفجر فى وجهه ، إلا أن نظرته الصارمة جعلتها تتراجع فى سرعة ، قائلة :

ـ ما زال الاحتمال قائمًا .

قال فى صرامة :

ـ فى هذه الحالة ، لابد أن أفهم ما يحدث .

تنهَّدت فى توتر ، وأشارت بيدها إلى الدكتور (عبد الحميد) ، الذى بدأ جسده يهدأ فى وضوح ، قائلة :

ـ إننا أمام حالة عجيبة ، وأعراض لم يسجّلها أى مرجع طبيٍ من قبل ، وهى ترتبط بأمور عجيبة ، يصعب تفسيرها ، وفقًا للمنهج الطبى المعروف ..

سألها فى اهتمام صارم :

ـ بمعنى ؟!

أكملت ، وكأنها لم تسمعه :

ـ ففى كل مرة ، يرتبط الأمر بصوت أشبه برصاصة تعبر الهواء ، وهذه هى النقطة الأكثر غموضًا ، فى الأمر كله ، إذ إنه من بين كل وسائل انتقال العدوى ، التى عرفها تاريخ الطب ، لاتوجد جرثومة واحدة ، تقفز من جسد إلى آخر ، مخلفة ذلك الصوت القوى ، أو حتى أى صوت آخر .. وانتقال العدوى نفسه أمر غير مفهوم ، إذ أنها تنتقل دومًا إلى شخص واحد فحسب ، ويقترن هذا بشفاء المريض السابق ، الذى يعانى نقصًا شديدًا فى نسبة البوتاسيوم ، مع وجود أوزون مجهول المصدر فى دمه .

قال فى اهتمام :

ـ هذا يعنى أننا امام جرثومة جديدة ، لم يرصدها أو يسجلها العلم من قبل .

أشارت بسبَّابتها ، قائلة :

ـ بالضبط .. جرثومة أحادية الإصابة .. لاتترك أى دليل على التكاثر أو النمو ، فى جسد أية ضحية ، وهى تفارق الجسد ، إذا ما توقَّفت عضلاته عن الحركة .

سألها فى اهتمام أكثر :

ـ ولماذا هذا فى رأيك ؟!

تردَّدت لحظة ، قبل أن تقول فى حزم :

ـ لم أجر الاختبارات اللازمة بعد .. ليس لدى الآن سوى نظرية .

قال فى حزم :

ـ أحب أن أسمعها .

قبل أن تنفرج شفتاها ، لتجيب عبارتـه ، هتـف الدكتـور (أشرف) فجأة ، فى ذعر شديد :

ـ يا إلهى ! انظروا .

استدار الكل إلى شاشات أجهزة الفحص ، وخفق قلب الدكتورة (زينب) بمنتهى العنف ..

فوفقًا لكل المؤشرات ، كـان جسد الدكتور (عبد الحميد) ينهار ..

بمنتهى السرعة ..

والعنف .

★ ★ ★

٣ ـ العدو الخفى ..

ضغط الدم كان ينخفض بسرعة مخيفة ، ومعدلات النبض تتسارع على نحو رهيب ، والعرق يغمر جسد الدكتور (عبد الحميد) ، وكأنما انفتحت مسامه العرقية كلها دفعة واحدة ، دون سبب معروف ..

وبكل ذعرها ، هتفت الدكتورة (زينب) :

ـ مستحيل ! لقد تم حقنه بعقار الكورتيزون .. لايمكن أن ينخفض ضغط دمه على هذا النحو .

هتف (أشرف) ، وهو يلتقط محقنًا فى لهفة :

ـ لابد من حقنه بالأدرينالين فورًا .

أمسك العميد (مجدى) معصمه فى قوة ، قائلاً فى صرامة :

ـ مهلاً .. لايمكنك أن تدخل الخيمة الواقية ، دون زى خاص .

أشار (أشرف) إلى أجهزة الفحص ، صائحًا فى حدة :

ـ لاوقت لهذا .. ألاترى مايحدث .. لو تأخَّرنا دقيقة أخرى ، سيلقى أستاذى مصرعه هناك .

استَل العميد (مجدى) مسدسه ، وهو يقول فى صرامة أكبر :

ـ عندما يتعلَّق الأمر بالأمن القومى ، لا قيمة لحياة فرد واحد .

هتفت الدكتورة (زينب) :

ـ هل جننت ؟!

صاح بها العميد (مجدى) :

ـ إننى أقوم بواجبى .

دفعه (أشرف) بيده فجأة ، وهو يصرخ :

ـ وأنا أيضًا .

قالها ، ووثب نحو الخيمة الواقية ، وجذب سوستة مدخلها فى عنف ، فأدار العميد (مجدى) فوهة مسدسه نحوه ، صائحًا :

ـ فليكن .. أنت أردت هذا .

اندفعت (زينب) نحوه ، وارتطمت به فى قوة ، فسقط

استل العميد (مجدى) مسدسه ، وهو يقول فى صرامة أكبر :
ـ عندما يتعلق الأمر بالأمن القومى ، لا قيمة لحياة فرد واحد ..

معها أرضًا ، وانطلقت رصاصة مسدسه ، لتخترق جدار الحجرة ، فى نفس اللحظة التى اندفع فيها (أشرف) داخل الخيمة الواقية ، وكشف ذراع أستاذه ، ليحقنه بعقار الأدرينالين..

وبكل غضبه ، صاح العميد (مجدى) :

ـ كيف تجرئين ؟!

نهضت الدكتورة (زينب) ، قائله فى عصبية :

ـ كيف تجرؤ أنت على قتل إنسان ، لأنه يحاول إنقاذ أستاذه ؟!

صاح فى غضب صارم ، وهو ينهض بدوره :

ـ عندما يتعلّق الأمر بأمن (مصر) لا يمكن أن أخاطر بانتشار جرثومة كهذه ، مهما كان الثمن .

هتفت فى ضق :

ـ وكيف يمكنك أن تحكم على أمر كهذا ؟!

وأشارت إلى أجهزة الفحص ، مستطردة فى حدة :

ـ هل ترى هذا ؟! حقنه بالأدرينالين أعاد معدلاته الحيوية إلى طبيعتها .

هتف غاضبًا :

ـ وماذا عن العدوى ؟!

أدارت عينيها فى حركة سريعة إلى داخل الخيمة الواقية ، وهى تقول فى توتر :

ـ نعم .. ماذا عنها ؟

لم تكد تتمّ عبارتها ، حتى سمع الجميع بغتة ذلك الصوت ، الشبيه بصوت رصاصة تخترق الهواء ، ثم صرخ الدكتور (أشرف) فى ألم ، وأمسك عنقه ، قبل أن يسقط أرضًا ..

وبمنتهى العصبية ، أدارت الدكتورة (زينب) عينيها إلى العميد (مجدى) مرة أخرى ، قائلة :

ـ لقد حدثت بالفعل .

وكان من الواضح أن الأمر يزداد غموضًا أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

* * *

شعر الدكتور (عبد الحميد) بآلام محدودة فى أطرافه ، وهو يستعيد وعيه فى بطء ، فتأوَّه مغمغمًا :

ـ ماذا حدث ؟!

أتاه صوت يألفه منذ زمن طويل ، يقول فى حنان :

ـ حمدًا للَّه على سلامتك .

فتح عينيه ، وتطلَّع إلى وجه الدكتورة (زينب) لحظة ، قبل أن يبتسم فى إرهاق شديد ، قائلاً :

ـ أنت ؟! ما أجمل أن يقع بصرى على وجهك ، عندما أفتح عينىَّ .

ضحكت ضحكة قصيرة ، وضغطت يده فى حنان ، قائلة :

ـ ما زلت كما أنت ، لم تتغيَّر أبدًا .

همس فى تهالك :

ـ وما زلت أحبك من أعمق أعماق قلبى .

ارتفع حاجباها فى تأثُّر ، وهى تتطلَّع إليه فى حنان ، قبل أن تبعد يدها عن كفه ، وتعتدل فى مجلسها ، قائلة :

ـ ولكن هذا لم ينقذ زواجنا من الفشل للأسف .

قال فى أسى :

ـ أنت التى أصررتِ على الطلاق .

عضت شفتها السفلى ، التى ارتجفت قليلاً ، ثم مالبثت أن قالت فى توتر :

ـ دعنا من هذا ، وأخبرنى .. ما الذى شعرت به ، بعد أن اخترقتك تلك الجرثومة .

سألها فى اهتمام مرهق :

هل فعلت ؟!

أومأت برأسها إيجابًا ، وقالت :

ـ لقد فحصت عنقك بنفسى ، تحت الميكروسكوب الجراحى .

ثم مالت نحوه ، مستطردة فى اهتمام حائر :

ـ هل تعلم أنها قد خرجت من جسدك ، من نفس الفتحة التى دخلت منها ، عند وريدك العنقى ؟!

لوَّح بيده فى ضعف ، قائلاً :

ـ أمر مثير للاهتمام بالفعل .

ثم تنهد ، مضيفًا :

ـ يا إلهى ! كم أشعر بالإرهاق .

قالت فى تعاطف :

ـ أمر طبيعى .. نقص شديد فى البوتاسيوم ، ونسبة عجيبة من الأوزون فى الدم .

سألها فى اهتمام :

ـ أهو فيروس جديد كما توقَّعت ؟!

هزَّت رأسها نفيًا ، وقالت :

ـ بل جرثومة غريبة ، لم يتَم رصدها من قبل ، وهى أكبر حجمًا من الفيروسات أو البكتيريا المعروفة .

سألها :

ـ وماسر ذلك التفاعل البيروجينى العنيف ، غير التقليدى ، الذى يحدثه وجودها فى الجسم ؟!

هزَّت رأسها ، قائلة :

ـ ليس تفاعلاً بيروجينيًا كما تصوَّرت ، بل هو استحثاث

مقصود لعضلات الجسم ، حتى تنقبض وترتخى بإيقاع سريع ، يساعد مضخة الصوديوم والبوتاسيوم التبادلية فى الخلايا على العمل بكفاءة أكبر .

سألها فى دهشة :

ـ بأى هدف ؟!

ابتسمت ابتسامة باهتة ، قائلة :

ـ كان ينبغى أن تستنتج أيها العبقرى .

حاول ان يعتدل جالسًا ، وهو يقول :

ـ سرعة إنتاج البوتاسيوم ، الذى تستهلكه الجرثومة بوسيلة ما .

أشارت بسبَّابتها ، قائلة :

ـ بالضبط .

ثم هزَّت رأسها مرة أخرى ، متابعة :

ـ أحادية الإصابة هى أكثر شىء يثير اهتمامى ، مع وسيلة انتقالها ، المصحوبة بصوت الرصاصة أيضا ، فهذا يوحى بأننا أمام جرثومة واحدة ، لاتتكاثر أو تتضاعف ، وهذا أمر لم نقرأ له مثيلاً قط .

جلس على طرف الفراش ، ولهث لحظة ، وكأنما بذل جهدًا خرافيًا ، قبل أن يسألها :

ـ بمناسبة أحادية الإصابة .. من يحمل الجرثومة بدلاً منى الآن ؟!

ازدردت لعابها ، قبل أن تجيب فى حذر :

ـ (أشرف) .

انتفض جسده فى عنف ، وهو يهتف فى ذعر :

ـ الدكتور (أشرف) .

أومأت برأسها إيجابًا ، فوثب من فراشه ، هاتفًا :

ـ وتركته وحده ! يالك من مستهترة !!

على الرغم من إرهاقه الشديد ، راح يعدو إلى جوارها ، حتى بلغا حجرة (أشرف) ، الذى يرقد داخل الخيمة الواقية ، وجسده ينتفض فى عنف ، فاستقبلهما العميد (مجدى) فى لهفة ، وهو يسأل الدكتور (عبد الحميد) :

ـ هل استعدت عافيتك بهذه السرعة ؟!

لم يبد حتى أن الدكتور (عبد الحميد) قد سمعه ، وهو

يتابع المؤشرات والمنحنيات الإليكترونية لكل الأجهزة ، التى تتصل بجسد (أشرف) ، فالتفت العميد (مجدى) إلى الدكتورة (زينب) ، قائلاً فى توتر :

ـ أيعنى هذا أن الجرثومة ليست قاتلة ؟!

أجابته فى سرعة :

ـ حتى الآن ، هى ليست كذلك !

سألها فى عصبية :

ـ ماذا تعنين بكلمة حتى الآن هذه ؟!

أجابته فى صرامة :

ـ إننا نواجه جرثومة مجهولة ، تتصرف كما لو أنها عدو بالغ الذكاء والحنكة .

تراجع العميد (مجدى) مبهوتًا ، وهو يقول :

ـ جرثومة ذكية ؟! أى قول أحمق هذا ؟!

لم يرفع الدكتور (عبد الحميد) عينيه عن جسد (أشرف) المنتفض ، وشاشات الفحص والمتابعة ، وهو يستمع بانتباه إلى الدكتورة (زينب) ، وهى تجيب فى صرامة :

ـ عيبكم يا رجال الأمن هو أنكم تنشدون دومًا تفسيرًا يناسب طبيعة عقولكم ومعارفكم ، وترفضون قبول أى أمر ، يتجاوز حدود المنطق العادى .

زمجر العميد (مجدى) ، قائلاً :

ـ أليس هذا ما يفترض أن يفعله أى إنسان عاقل ؟!

أجابته بنفس الصرامة :

امنحنى تفسيرًا آخر لما حدث إذن .. لقد حقنت الدكتور (عبد الحميد) بالعقاقير ، ثم تركته وحده معزولاً ، دون أية وسيلة لانتقال الإصابة ، وهنا عمدت تلك الجرثومة المجهولة إلى العبث بمعدلاته الحيوية ، لإجبارنا على التحرك بالسرعة المناسبة ، التى تمنعنا من اتخاذ أية إجراءات وقائية ، وتدفعنا إلى المجازفة بدخول واحد منا ، يمكن أن تنتقل إليه ، بعد أن استنفدت كل ما يمكن استنفاده من البوتاسيوم ، وبعد أن منعتها العقاقير الطبية ، على نحو أو آخر ، من استحثات انقباضات العضلات وتحفيز مضخة الصوديوم والبوتاسيوم التبادلية .

حدق فى وجهها لحظة ، وقد أربكته تلك المصطلحات العلمية الطبية ، ثم لم يلبث أن قال فى حدة :

ـ ربما كان نوعًا من الغريزة المتطوِّرة ، تمامًا مثل الثعبان ، الذى يتوارى فى جحره إذا ما لاح له الخطر .

قال الدكتور (عبد الحميد) :

ـ هذا أمر مختلف .

التفت إليه العميد (مجدى) فى حدة ، قائلاً :

ـ كنت أظننا نتحدَّث عن الأمور المختلفة .

أشار الدكتور (عبد الحميد) إلى (أشرف) الذى يواصل جسده انتفاضاته ، قائلاً فى حزم :

ـ أعتقد أن الأمر الوحيد ، الذى يستحق أن نتحدَّث عنه الآن ، هو هذا المسكين ، الذى سيفقد كل ما بجسده من بوتاسيوم ، لو لم نبادر بحقنه بالكورتيزون ، والمواد المضادة للحساسية .

قالت الدكتورة (زينب) فى صرامة :

ـ لن أحقنه بالكورتيزون .

التفت إليها الدكتور (عبد الحميد) ، قائلاً :

ـ ولِمَ لا ؟!

أجابته فى حزم :

ـ وفقًا لنظريتى .. مضادات الحساسية وحدها هى التى أوقفت عملية استنفاد البوتاسيوم .

عقد ساعديه أمام صدره ، وسألها :

ـ ولم لا يكون الكورتيزون هو ما فعل هذا ؟!

عقدت ساعديها أمام صدرها بدورها ، وقالت :

ـ التجربة ستثبت أينا على حق .

قال فى حدة :

ـ هذا دأبك دائمًا .. العناد دون سند علمى .

هتفت محتدّة :

ـ هل نسيت أننى أتمتع بغزيرة الأنثى ، التى تجهلونها أنتم أيها الرجال ؟!

أطلق ضحكة عصبية ساخرة ، قائلاً :

ـ غريزة الأنثى ؟! ياللسخافة ! خدعة أخرى غير علمية ، يروق لكنّ تصديقها ، دون أية دلائل أيتها النساء .

صاحت به :

ـ الآن أعلم لماذا فشل زواجنا .

صاح بها :

أما زلت تصرّين على أننى المسئول ؟!

هتف بهما العميد (مجدى) فى حدة :

ـ أعتذر عن مقاطعة هذا الحوار اللطيف ، ولكن تُرى ألديكما وقت لمتابعة الحالة التى أمامكما أم لا ؟!

أصابتهما عبارته فى مقتل ، فبتر كل منهما حديثه دفعة واحدة ، وتطلّعا إلى بعضهما بشىء من الحرج والخجل ، قبل أن يلتفتا معًا إلى الواجهة الشفافة للخيمة الواقية ويقول (عبد الحميد) فى حزم :

ـ ألم يحن الوقت بعد لحقنه بأى عقار كان ؟!

أجابته الدكتورة (زينب) ، فى شىء من التوتر :

ـ إننى أنتظر وصول القرد .

استدار إليها بكل دهشته هاتفًا :

ـ القرد ؟! أى قرد ؟!

أجابته فى سرعة متوترة :

ـ أريد معرفة ما إذا كانت الإصابة تنتقل عبر البشر وحدهم ، أم أنه من الممكن أن تنتقل عبر أى كائن حى .

سألها فى اعتراض عصبى :

ـ هل ستضعين القرد مع (أشرف) ؟!

أجابته بصلابة وصرامة :

ـ بالضبط .

صاح فى حدة :

ـ هذه أكبر حماقة يمكن أن ...

بتر عبارته بغتة ، عندما هتفت ، وهى تشير إلى رسام المخ الكهربى :

ـ يا إلهى ! انظر .

أدار عينيه فى حركة حادة سريعة إلى حيث تشير ، ثم اتسعت عيناه فى دهشة مذعورة ..

فإشارات المخ كانت توحى بأن عقل(أشرف) يشهد نشاطًا غير عادى ..

نشاط أشبه بنشاط مخ يعمل فى معضلة رياضية شديدة التعقيد ، على نحو لا يمكن أن يتناسب مع شخص فاقد الوعى ..

وبكل دهشته ، غمغم الدكتور (عبد الحميد) :

ـ تُرى ما الذى يعنيه هذا بالضبط ؟!

صمتت الدكتورة (زينب) بضع لحظات ، وهى تحدق فى رسام المخ الكهربى ، قبل أن تقول بلهجة عجيبة :

ـ يعنى أنها تتصل به عقليًا ، على نحو أو آخر .

هتف الدكتور (عبد الحميد) ، والعميد (مجدى) بها ، فى آن واحد :

ـ ما هى ؟!

التفتت إليهما ، مجيبة بحزمها المعهود :

ـ الجرثومة .

وكان جوابًا مدهشًا ..

إلى أقصى حد ..

* * *

« أين هو بالضبط ؟! » .

هذا السؤال هو أوّل ما طرح نفسه على ذهن (أشرف) ، وعقله يبدأ فى الشعور بما حوله ..

فعلى الرغم من أنه لم يفتح عينيه بعد ، إلا أنه يشعر جيّدًا بتلك الحركة من حوله ..

إنه داخل غوّاصة ..

نعم .. غوّاصة تسبح فى أعماق البحر ، وتتحرّك فى نعومة مدهشة ..

ولكن ما الذى أتى به إلى مكان كهذا ؟!

آخر ما يذكره هو أنه كان يحقن الدكتور (عبد الحميد) بالأدرينالين ، عندما سمع صوت الرصاصة ، وشعر بشىء حاد ضئيل يرتطم بعنقه ..

ثم لم يشعر بعدها بأى شىء ..

وهذا يعنى أن تلك الجرثومة الغامضة قد أصابته ..

فما الذى فعلوه به بعد هذا ؟!

هل يستخدمون معه وسيلة علاج مختلفة جديدة ؟!

أم أنه ...

قبل أن تكتمل أفكاره ، سمع صوتًا عميقًا هادئًا ، يقول :

- أنت ما زلت ترقد على فراشك فى المستشفى ، فاقد الوعى .

من المؤكّد أنه قد سمع العبارة ..

ولكنه لم يسمعها حتمًا بأذنيه ..

لقد سمعها بعقله ..

بعقله وحده ..

شىء ما تسلّل إلى أعمق تلافيف مخه ، وانغرس فى مراكز سمعه مباشرة ، ونقل إليه العبارة ..

أو الإحساس بها على الأرجح ..

و ...

ولكن مهلاً ..

هذا مستحيل تمامًا ، من الناحية العلمية !

كيف يكون فاقدًا للوعى ، ويمكنه أن يستوعب الأمر ويشعر به ، على هذا النحو شديد الوضوح ؟!

أهو مجرد حلم ؟!

ولكن فاقد الوعى لا يحلم مثل النائم(*) ..

« إنه ليس حلمًا .. »

مرة أخرى يتردَّد ذلك الصوت الهادئ العميق فى عقله مباشرة ..

« أين أنا إذن ؟! »

هو الذى ألقى السؤال عبر عقله هذه المرة ، ودون أن يفتح شفتيه ، على نحو لم يعهده ، أو يختبره فى نفسه من قبل قط ..

وهذا أدهشه بشدة ..

(*) حقيقة علمية ..

وأثار حيرته إلى أقصى حد ..

«جسدك مازال يرقد على فراش المرض ، يواصل انقباضات عضلاته ، حتى يمدنا بالبوتاسيوم اللازم .. أما عقلك ، فهو معنا هنا .. »

تردَّد الصوت الهادئ العميق مرة أخرى ، فى أعمق أعماق مخه ، فتساءل ، دون أن يفتح شفتيه أيضًا :

ـ معكم ؟! من أنتم ؟! وكيف تتصلون بعقلى هكذا ؟!

أتاه الجواب مقتضبًا ، أكثر هدوءًا وعمقًا :

ـ نحن من تطلقون علينا ذلك الاسم .

تساءل بعقله :

ـ أى اسم ؟!

وجاء الجواب أكثر عمقًا بكثير :

ـ الجرثومة .

وانتقلت الانتفاضة إلى عقله ..

بمنتهى العنف .

★ ★ ★

٤ـ الاتصال ..

انهمكت الدكتورة (زينب) تمامًا، فى فحص قرد الشمبانزى الصغير[*]، وإعداده للتجربة، فى حين راح الدكتور (عبد الحميد) يتطلّع إلى مؤشرات رسام المخ الكهربى، وهو يقول فى قلق:

ـ مازال النشاط المخى مستمرًا.

غمغمت فى شرود:

ـ عظيم.

التفت إليها، هاتفًا فى استنكار:

ـ عظيم ؟!

أجابته فى ثقة أحنقته:

ـ بالطبع .. هذا يعنى أن الاتصال العقلى مستمر.

(*) الشمبانزى: من القردة العليا، الشبيهة بالإنسان، موطنه وسط وغرب (إفريقيا)، وهو كالغوريلا أكثر شبهًا بالإنسان، من القردة العليا الأخرى، وأكثرها ذكاءً، وقابلية للتعلُّم.

هتف فى حدة:

ـ اتصال عقلى ؟! من أين تأتى عالمة مثلك بهذه الخزعبلات ؟!

غمغم العميد (مجدى):

ـ هذا ما أتساءل عنه.

استدارت الدكتورة (زينب)، تنقل بصرها بينهما فى حنق، قبل أن تعتدل، مشيرة إلى الممرضة، وقائلة فى صرامة:

ـ استعدوا لإدخال الشمبانزى، وحقن الدكتور (أشرف) بمضادات الحساسية.

ثم عادت تستدير إليهما، قائلة فى حدة:

ـ عندما يتطوَّر عقل العالم، وتزداد خبراته، يصبح أكثر قدرة على تصوّر ما يتجاوز حدود إدراك الشخص العادى.

قال الدكتور (عبد الحميد) فى صرامة:

ـ هذا ليس منطقًا علميًا.

ثم أضاف بشىء من السخرية:

ـ ولا يتناسب حتى مع غريزة الأنثى .

احتقن وجهها فى غضب ، وهى تهتف :

ـ يالك من حاقد !

صاح مستنكرًا :

ـ حاقد ؟! أنا ؟!

زفر العميد (مجدى) ، قائلاً فى حدة :

ـ هل ستعاودان الشجار ؟!

انعقد حاجباها ، وزمَّت شفتيها فى شدة ، فى حين زفر الدكتور (عبد الحميد) بدوره ، قائلا :

ـ كلاَّ .

ثم أشاح بوجهه ، نحو الجانب الشفاف من الخيمة ، مستطردًا ، وكأنه يصرف ذهنه عن الأمر :

ـ الشمبانزى بالداخل ، وها هى ذى الممرضة تحقن (أشرف) بمضادات الحساسية .

التقطت الدكتورة (زينب) نفسًا عميقًا ، لتسيطر على أعصابها المتوترة ، قبل أن تقول فى حزم :

ـ فلنتابع إذن ما سيحدث .

قالتها ، وهى تدير عينيها إلى رسام المخ الكهربى ، وتتساءل فى أعماقها ..

تُرى ما الذى يدور فى عقل (أشرف) الآن بالضبط ؟!

وماذا يحدث هناك فى أغواره ؟!

ماذا ؟!

ماذا ؟!

★ ★ ★

« مستحيل ! »

انطلق الهتاف من أعماق مخ (أشرف) ، قبل أن يكمل ، دون أن يفتح شفتيه :

ـ مستحيل أن أتحدَّث إلى جرثومة ! الجراثيم كائنات دقيقة ، بسيطة التركيب ، ليست بها أجهزة معقَّدة ، تتيح لها التفكير والتحدُّث .

أتاه الجواب فى تلافيف مخه ، بذلك الصوت الهادئ العميق :

ـ أنتم تصوَّرتم أننا مجرَّد جرثومة ، ولكن واقعنا ليس كذلك أبدًا .

تساءل فى حيرة ولهفة :

ـ ما أنتم إذن ؟!

خُيِّل إليه أن فترة طويلة من الصمت قد مضت ، قبل أن ينبعث ذلك الصوت العميق من أعماق مخه ، قائلاً فى بطء :

ـ من الصعب أن تستوعب .

هتف من أعماقه :

ـ يمكننى أن أحاول .

قال الصوت العميق :

ـ لاتوجد سوى وسيلة واحدة لهذا .

هتف بكل لهفة :

ـ وما هى ؟!

عاد ذلك الصوت العميق يصمت طويلاً مرة أخرى ، قبل أن يجيب بلهجة حازمة :

ـ أن تصبح واحدًا منا .

لم يكد يتم عبارته ، حتى شعر (أشرف) وكأنه قد سقط بغتة فى بئر عميقة ..

عميقة بلا قرار ..

كان ينزلق داخلها ، فى منحنيات حادة ، وبسرعة مدهشة ، وكأنه يهوى من ارتفاع ألف ألف متر ..

والعجيب أنه لم يشعر بالخوف ..

أى خوف ..

شىء ما فى أعماقه ، أو مخه ، أو فى كيانه كله ، جعله يدرك أن ما يحدث لن يسبِّب له الضَّرر ..

أدنى ضرر ..

ثم فجأة ، بدا وكأنه قد ارتطم بكيان رخو رطب ..

أو بخلايا مخ آخر ..

وبلا مقدمات ، انفتحت بصيرته على رؤيا واضحة جدًا ..

وعجيبة جدًا ..

وبلا مقدمات أيضًا ، وجد نفسه واحدًا من طاقم سفينة فضائية عجيبة .. كانوا أربعة ملاحين .. اثنان يجلسان فى المقدّمة ، أمام نافذة زجاجية كبيرة ، وهو يجلس مع آخر فى المؤخرة ..

لم يكونوا بشرًا ..

ولكن هيئتهم كانت قريبة للغاية من البشر ..

نفس التكوين التشريحى المتناسق ، باستثناء أصابع اليد الثلاثية ، والوجه ذى العينين الضخمتين الواسعتين ، والبشرة الصفراء الشاحبة ، والرأس الأصلع الحرشوفى ..

حتى هو ، كانت له الهيئة نفسها ..

وكان يشعر وكأنه منذ الأزل واحد منهم ..

لقد أوصلوا عقله بعقل أحدهم ..

غاصوا به فى ذاكرتهم ؛ ليعرف قصتهم ..

كلها ..

سفينة الفضاء كانت تنطلق بين النجوم بسرعة خرافية ، ولكن الكواكب من حولها بدت ضخمة ..

اثنان يجلسان فى المقدمة ، أمام نافذة زجاجية كبيرة ، وهو يجلس مع آخر فى المؤخرة .. لم يكونوا بشراً ..

بل هائلة ..

وإلى أقصى حد ..

ولأنه يغوص فى عقل أحدهم ، فقد فهم السر ..

إنهم كائنات صغيرة للغاية ، فى حجم الفيروسات ، وسفينتهم الفضائية كلها لايزيد حجمها عن حجم جرثومة صغيرة ..

ومن بعيد ، ظهر كوكب (الأرض) .

وبسرعة تقترب من سرعة الضوء ، انطلقت سفينة الفضاء الجرثومية نحوه ..

لم يكن بنية الملاحين قط الهبوط فوقه ، نظرًا لجاذبيته الرهيبة ، بالنسبة لحجم سفينتهم ..

وخارج مدار جاذبية (الأرض) ، توقَّفت السفينة الفضائية الدقيقة ، وراحت ترصد الحياة على كوكب الأرض ، بوسائل تكنولوجية شديدة التقدُّم ..

كانوا ، على ضآلة أحجامهم ، يمتلكون تكنولوجيا تفوق تكنولوجية (الأرض) بعشرات المرات ..

وكانت لديهم بالفعل معلومات كثيرة فائقة عن (الأرض) ..

لاريب فى أنهم يراقبونها منذ سنوات طوال ..

ربما أطول مما يمكننا أن نتصوَّر ..

فبحجمهم هذا ، يستحيل أن ترصدهم أية وسيلة رصد ، مهما بلغت دقتها ..

كوكب الأرض نفسه ، وهم يقفون خارج مدار جاذبيته ، كان يملأ الفضاء كله أمام عيونهم ، كما لو أنه عالم كامل أزرق اللون بلاحدود .

واسترخى ذهن (أشرف) تمامًا ، وهو يتابع هذا ..

ثم فجأة ، عبر ذلك النيزك الصغير إلى جوار السفينة ..

ومسَّها فحسب ..

ومع حجمها الجرثومى ، اختل توازنها تمامًا ، واندفعت نحو (الأرض) ، وملاحوها يبذلون جهدًا خرافيًا للسيطرة عليها ، واستعادة توازنها ..

ولكن السفينة سقطت فى مجال جاذبية الأرض ..

وراحت تهوى ..

وتهوى ..

وتهوى ..

بمنتهى العنف ..

★ ★ ★

« إشارات المخ تشير إلى تضاعف مفاجئ للنشاط .. »

نطق الدكتور (عبد الحميد) العبارة فى قلق شديد ، فهزَّت الدكتورة (زينب) رأسها ، مغمغمة فى حيرة متوترة :

ـ عجبًا ! كما لو أنه يمرّ بكابوس عنيف .

هزَّ الدكتور (عبد الحميد) رأسه فى قوة ، قائلاً :

ـ مستحيل ! فاقدو الوعى لايحلمون ، أو يرون الكوابيس .

تساءل العميد (مجدى) فى توتر :

ـ ما الذى يعنيه هذا إذن ؟!

مطَّت الدكتورة (زينب) شفتيها ، وهزَّت رأسها ، قائلة :

ـ لسنا ندرى .. هذا يتعارض مع أى منطق طبى ..

وتردَّدت لحظة ، قبل أن تضيف :

ـ إلا إذا ..

قاطعها العميد (مجدى) فى توتر :

ـ أرجوك .. لاحديث مرة أخرى عن ذلك الاتصال العقلى الفائق .

مطَّت شفتيها مرة أخرى ، وعقدت ساعديها أمام صدرها ، قائلة :

ـ أنتما وشأنكما .

ثم أشارت إلى (أشرف) ، عبر الجانب الشفاف من الخيمة الواقية ، مضيفة فى حدة :

ـ فسرا لى إذن ، كيف يسترخى جسده تدريجيًا ، فى نفس الوقت الذى يشتعل فيه عقله هكذا ؟!

تبادل الرجلان نظرة صامتة حائرة ، قبل أن يجيب الدكتور (عبد الحميد) فى عناد :

ـ هناك حتمًا تفسير علمى .

ثم أشاح بوجهه فى سرعة ، قبل أن تلقى سؤالاً آخر ، وإن عاد عقله يتساءل فى حيرة شديدة ..

تُرى ما الذى تسبَّب فى هذا النشاط الفائق لعقل (أشرف) الفاقد الوعى ؟!

وكيف يمكن أن يحدث هذا ، فى مثل هذه الظروف ؟!

كيف ؟!

كيف ؟!

★ ★ ★

سفينة الفضاء الجرثومية أصبحت سجينة فى مجال جاذبية الأرض ..

لايمكنها أن تتحرَّر منه ، إلا بطاقة هائلة ..

طاقة لاتتوافر فى محركاتها الاعتيادية ...

ولكن هناك محرّك خاص للطوارئ ..

محرّك يمكنه دفعها ، ضد قوة الجاذبية الأرضية ، حتى تعود إلى الفضاء الخارجى ..

ولكن هذا المحرّك يحتاج إلى طاقة خاصة جدًّا ..

طاقة قوامها الرئيسى مادة البوتاسيوم ، فى صورته الحيوية ..

ووفقًا لما لديهم من معلومات ، لايمكن أن يتوافر البوتاسيوم فى صورته الحيوية المطلوبة ، إلا فى الأجساد البشرية ..

والأجساد البشرية وحدها ..

وهنا كان على الطاقم أن يدرس الأمر جيدًا ..

وأن يتخذ القرار ..

وبأقصى سرعة ..

العوامل المناخية لكوكب (الأرض) كانت تؤذى أجهزة السفينة بشدة ..

والانتظار يعنى الدمار ..

الدمار الشامل .

ومن موقعه ، داخل مخ الملاح الطبى ، اقترح (أشرف) الفكرة كلها ..

الغوص فى أعماق الأجساد البشرية ، وحث عضلاتها على العمل والانقباض بكل طاقتها ، لتشغيل مضخة الصوديوم والبوتاسيوم التبادلية ، والحصول على الطاقة المطلوبة ..

وقد كان ..

وبسرعتها المدهشة ، اخترقت السفينة الفضائية الجرثومية سماء كوكب (الأرض) ، واتجهت نحو أوّل بشرى رصدته ..

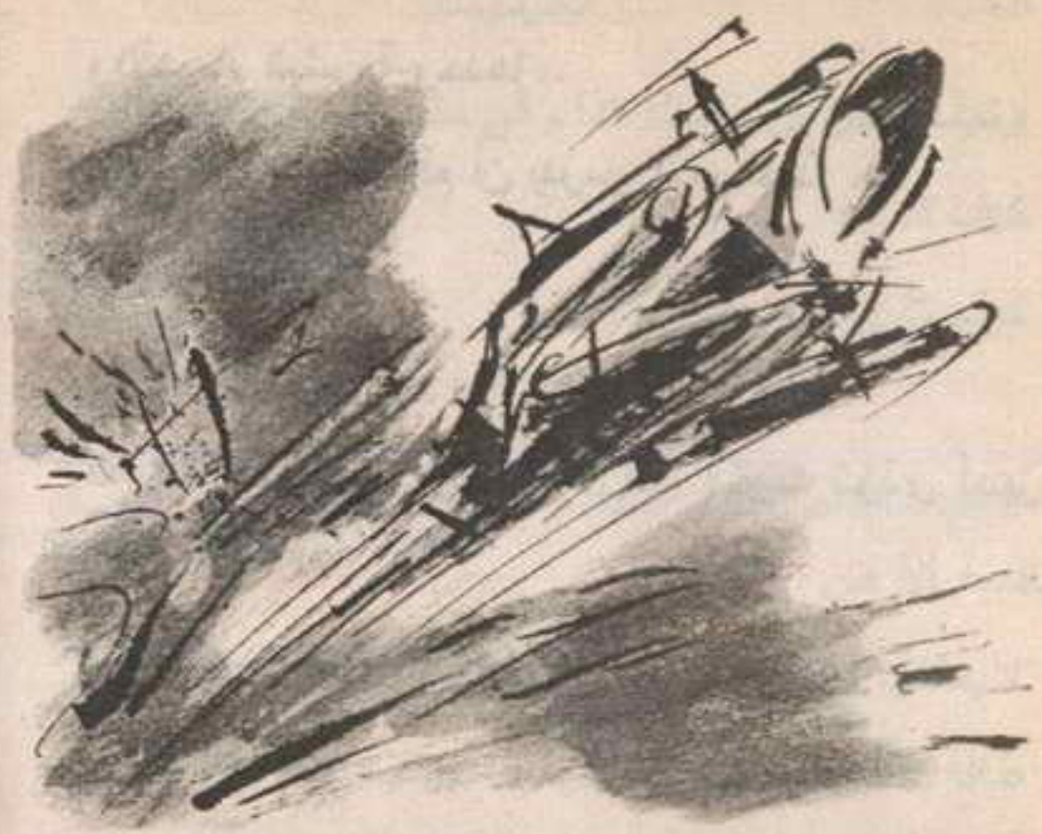

اختراقها الجو بهذه السرعة ، جعل صوت انطلاقها أشبه بالرصاصة ..

ثم اخترقت الوريد العنقى للعامل ..

وبوسائلها التكنولوجية المتقدّمة ، راحت تقوم بكل المطلوب ، وهى تسبح وسط دماء الرجل ، مع اتخاذ كل ما يلزم ، لمنع التفاعل البيروجينى ، الذى يمكن أن يقضى عليه ..

وطوال الوقت ، كانت أجهزتها تستهلك مادة الهستامين البشرية(*) ، كوقود مؤقت ، لتشغيل أجهزتها ، وتطلق العادم على شكل أوزون(**) ..

وقبل أن تحصل على كفايتها ، بدأ البشر فى استخدام مضادات الحساسية ، التى تمنع إطلاق الهستامين ..

لذا ، كان من المحتّم أن تنتقل سفينة الفضاء الجرثومية إلى شخص آخر .. شخص تجد لديه ما ينقصها من الوقود ..

من البوتاسيوم ..

« إذن فهذا ما كان يحدث ؟! »

(★) الهستامين : مادة تشتقّ من الحمض الأمينى (هستدين) ، توجد فى معظم الخلايا النباتية والحيوانية ، وتساعد فى زيادة مرور الدم ، عند عمل العضلات ، وتنبيه إفراز العصير المعدى ، وخاصة حمض (الهيدروليك) ، ويطلق الهستامين من الأنسجة إلى الدم بكثرة ، نتيجة الحروق ، أو الحوادث التى تمزّق الأنسجة ، أو الجراحة الشديدة ، أو بعض حالات الحساسية ، وعندئذ تحدث صدمة شديدة ، وهبوط فى ضغط الدم .

(★★) غاز لونه ضارب إلى الزرقة ، غير ثابت ، له رائحة نفّاذة ، وهو صورة جزيئية للأكسجين ، يتركب جزيؤه من ثلاث ذرات منه ، وهو أشد نشاطًا من الأكسجين ، وأثقل منه بمرة ونصف ، يتكوّن عند مرور تفريغ كهربى خلال الأكسجين ، لذا فهو يتواجد فى الهواء ، بعد العواصف الكهربية .

هتف (أشرف) بالعبارة ، من أعمق أعماق عقله ، ولم يكد يفعل ، حتى انسحب بغتة من عقل الملاح الطبى ، وعاد إلى جسده ، وإلى الظلام المحيط به ، مع شعور عجيب بأنه قد سقط فجأة من حالق ، فوق وسادة لينة مريحة ..

ولوهلة ، خُيِّل إليه أنه لن يحصل على الجواب أبدًا ، إلا أن ذلك الصوت الهادئ العميق لم يلبث أن عاد إلى عقله ، وهو يجيب :

ـ كنا مضطرين لهذا .. ولقد بذلنا كل جهد ممكن ، حتى لايصاب أحد بالأذى .. وكنا واثقين أنكم تستطيعون تعويض مانحصل عليه من البوتاسيوم ، من أجساد البشر ..

تساءل (أشرف) :

ـ أما زلتم بحاجة إلى المزيد ؟!

أجابه الصوت العميق :

ـ قدرتنا على الاتصال بك تعنى أنه لم يعد ينقصنا سوى القليل .. والقليل جدًا .

سأله فى لهفة ، من أعماق مخه :

ـ هل اتصلتم بالضحيتين السابقتين ؟!

أجابه ذلك الصوت الهادئ العميق ، وهو يخفت على نحو ملحوظ :

ـ عقلاهما لم يكونا بالكفاءة المطلوبة ، وقدرتنا على الاتصال العقلى لم تكن قد اكتملت بعد .

غمغم فى ارتياح :

ـ عظيم .. كم يسعدنى أن أخبرتمونى بالأمر ، فمهما فعلنا ، لم يكن من الممكن أبدًا أن ندرك حقيقة الأمر .

وخُيِّل إليه أنه قد ابتسم فى أعماقه ، وهو يتابع :

ـ ولكن اطمئنوا .. يمكنكم الحصول على كل ماتحتاجون إليه من البوتاسيوم ، من جسدى وحده .

بدا الصوت خافتًا وبعيدًا للغاية ، وهو يقول :

ـ نشكرك كثيرًا ، ولكن هذا لم يعد مجديًا .. لقد توقَّف إنتاج الهستامين فى جسدك ، وربما يكفينا ماحصلنا عليه بالفعل .

هتف (أشرف) :

ـ لا .. انتظر .. هناك ما أرغب فى ....

قبل أن يتمّ عبارته ، التى انطلقت من خلايا مخه الرمادية ، خُيّل إليه أنه عاد يسقط فى عنف ، فهتف :

ـ لا .. ليس الآن ..

تباعد الصوت فى سرعة ، وهو يقول :

ـ تذكّر .. لاترو لأحد ما سمعته وشاهدته .. فوفقًا لدراستنا ، لن يصدّق مخلوق واحد روايتك .. سيبدو لهم الأمر أشبه بهذيان شخص فاقد الوعى ، أو مجرّد حلم ..

مجرّد حلم ..

حلم ..

حلم ..

ثم انتهى كل شىء ..

فجأة ..

★ ★ ★

بدت لهجة الدكتورة (زينب) مفعمة بالانفعال ، وهى تشير إلى رسام المخ الكهربى ، هاتفة :

ـ انظرا لقد توقّف نشاط المخ الزائد فجأة !

هتف الدكتور (عبد الحميد) :

ـ هذا صحيح .. جسده أيضًا استرخى تمامًا .

استدارت بسرعة إلى الخيمة الواقية ، وهى تقول فى انفعال :

الشمبانزى .. تابعا ما سيحدث للشمبانزى .

مع آخر حروف كلماتها ، سمع الجميع بغتة ذلك الصوت الحاد ، الشبيه بصوت رصاصة تخترق الهواء ..

ثم فجأة ، ارتجف الجانب الشفاف من الخيمة فى عنف ..

وسمعت الدكتورة (زينب) تلك الرصاصة ، تعبر على مسافة سنتيمتر واحد من أذنها اليسرى ، فأطلقت صرخة مذعورة ، وهى تلقى نفسها جانبًا ..

وفى عنف ، تحطّم زجاج النافذة ، وتناثر إلى الخارج ، فاستلّ العميد (مجدى) مسدسه ، وأداره نحو النافذة فى سرعة ..

ولكن شيئًا آخر لم يحدث ..

فقط أصيب الشمبانزى المسكين بحالة من الذعر ، فراح يصرخ ويتقافز هنا وهناك ، قبل أن يتعلَّق بعنق الدكتورة (زينب) ، ويتشبث بها ، وكأنما ينشد لديها الحماية ، كطفل صغير مذعور ..

وفى حنان عجيب ، راحت هى تربّت عليه ، مغمغمة :

ـ اهدأ يا صغيرى .. اهدأ .. لقد انتهى كل شىء .

سألها العميد (مجدى) فى عصبية ، وهو ما زال يمسك مسدسه :

ـ أتعتقدين هذا حقًا ؟!

تطلَّعت إلى الشمس ، التى تشرق من بعيد ، عبر النافذة المكسورة ، وإلى الدكتور (أشرف) ، الذى هدأ جسده واستقرّ ، ثم ضمَّت الشمبانزى المذعور إلى صدرها فى دفء وحنان ، وهى تجيب فى حزم :

ـ نعم .. أعتقد هذا .

تطلَّع إليها الرجلان لحظة فى صمت ، ثم لم يلبث العميد (مجدى) أن أعاد مسدسه إلى غمده ، فى حين ابتسم الدكتور (عبد الحميد) ، وأشار إلى الشمبانزى ، قائلاً :

ـ الآن أدركت ما الذى كان ينقص زواجنا ليستمر .

ثم مال نحوها ، وهمس فى حب :

ـ طفل .

وتضرَّج وجهها بحمرة الخجل ..

بشدة .

★ ★ ★

٥ ـ الختـــام ..

ابتسم الدكتور (أشرف) فى إرهاق ، وهو يرقد على فراشه فى المستشفى ، وأشار بيده فى ضعف ، قائلاً :

ـ يردّدون فى المستشفى أنكما ستتزوجان مرة أخرى .. أهذا صحيح ؟!

تضرَّج وجه الدكتورة (زينب) بحمرة الخجل ، وضغط الدكتور (عبد الحميد) كفها فى حنان وحب ، وهى تقول :

ـ نعم .. لقد قرَّرنا إعادة التجربة ، على ضوء المعطيات الجديدة .

اتسعت ابتسامته ، وهو يقول :

ـ ألف مبروك .

خفضت الدكتورة (زينب) عينيها فى خجل ، فى حين سأله الدكتور (عبد الحميد) فى اهتمام :

ـ ولكن ماذا عنك ؟! هل تشعر بأنك تتعافى ؟!

أومأ برأسه إيجابًا ، وهو يقول :

ـ بالتأكيد .

رفعت الدكتورة (زينب) عينيها إليه دفعة واحدة ، وهى تسأله فى شغف :

ـ ماذا أخبرتك به ؟!

سألها (أشرف) فى حذر قلق :

ـ ماذا تعنين ؟!

لوَّحت بيدها ، قائلة فى انفعال :

ـ تلك الجرثومة .. ما الذى أخبرتك به ، عندما اتصلت بعقلك ؟!

حدَّق فى وجهها بدهشة عارمة ، وبدا له من المذهل أن تستنتج أمرًا كهذا ، فى حين ضحك الدكتور (عبد الحميد) ، قائلاً :

ـ لا تجعلها تفزعك يا (أشرف) .. إنها تميل هذه الأيام إلى قصص الخيال العلمى ، وليس إلى العلم وحده .

قالت فى إصرار :

ـ أراهن على أنها لم تكن مجرَّد جرثومة .

حاول (أشرف) أن يبتسم ، وهو يسألها :

ـ وماذا يمكن أن تكون إذن ؟!

لوحت بيدها مرة أخرى ، وهى تجيب فى ثقة عجيبة :

ـ شىء من كوكب آخر .

كاد يقفز من مكانه ، وهو يهتف ذاهلاً :

ـ من ماذا ؟!

ضحك الدكتور (عبد الحميد) بملء فيه ، فى حين أجابت فى حماسة :

ـ شىء من عالم آخر .. من أعماق الفضاء .. شىء عاقل ، أو يحوى كائنات عاقلة .

هتف الدكتور (عبد الحميد) :

ـ يالله من خيال جامح !

غمغم (أشرف) فى انبهار :

ـ أو هى عبقرية مفرطة .

تألقت عيناها لعبارته ، ومالت نحوه ، متسائلة بكل لهفة الدنيا :

ـ هل أصاب استنتاجى ؟!

تطلّع إلى عينيها مباشرة لبضع لحظات ، قبل أن يقول فى بطء :

ـ ومن يمكن أن يصدّق قصة كهذه ؟!

تراجعت فى مقعدها ببطء ، قائلة بلهجة حملت نبرة ظافرة :

ـ لا أحد .

ثم غمزت بعينها ، مستطردة :

ـ إلا العباقرة فحسب .

ابتسم ، قائلاً :

ـ بالتأكيد .

نقل الدكتور (عبد الحميد) بصره بينهما لحظة فى دهشة مستنكرة ، قبل أن ينهض ، قائلاً فى حزم :

ـ أعتقد أنك أفضل حالاً الآن ، وهذا يعنى أن نتركك ، ونذهب للاهتمام بشئوننا ، خاصة وأننا نستعد لبدء عالمنا من جديد .

غمغم مبتسمًا :

ـ وفقكما اللّه (سبحانه وتعالى) ، ورعاكما .

ابتسمت الدكتورة (زينب) ، وهى تقول :

ـ اللّه (سبحانه وتعالى) يرعى كل خلقه .

ثم غمزت بعينها ، مضيفة :

ـ حتى ولو كانوا فى حجم الجرثومة .

اتسعت ابتسامة (أشرف) أكثر ، وهو يتابع انصرافهما ، ثم استرخى فى فراشه ، وعقله يستعيد تفاصيل اندماجه بعقول صغيرة قوية ..

عقول تثبت أن اللّه (عزّ وجلّ) يضع سره أحيانًا فى أضعف خلقه ..

وأصغرهم ..

حتى ولو كانوا فى حجم صغير للغاية ..

حجم جرثومة .

★ ★ ★

[تمت بحمد اللّه]

باقة من القصص
والروايات المصرية
قمة فى التشويق والإثارة

روايات مصرية للجيب

كوكتيل ٢٠٠٠

فى هذا الكتاب

صفحة

أم على (قصة قصيرة) ٥

الحاج شيحة (قصة قصيرة) ١٦

المقرب :

مهمة رسمية (الحلقة الثانية) ٢٥

القنبلة (قصة قصيرة) ٧٤

مذكرات طبيب - فى صعيد مصر الجوانى

(الحلقة السادسة) ٨٣

بالمصادفة .. (قصة قصيرة) ١٠٠

قصة العدد :

(الجرثومة) ١٠٩

عزيزى القارئ (١) ....

عزيزى القارئ (٢) ....

الثمن فى مصر ٣٠٠

ومايعادله بالدولار الأمريكى

فى سائر الدول العربية والعالم

مطابع